المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك سعود
كرسي القرآن الكريم وعلومه



دعوى
فهم القرآن في ضوء مناهج العلوم الإنسانية الغربية

منطلقاتها وحقيقتها وآفاقها

بحث مقدَّم

للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

٦/٤/١٤٣٤ هـ - ١٦/٢/٢٠١٣م

إعداد

د. عبد الرزاق هرماس إسماعيل بن محمد



دعوى
فهم القرآن في ضوء مناهج العلوم الإنسانية الغربية

منطلقاتها وحقيقتها وآفاقها

بحث مقدَّم

للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

٦/٤/١٤٣٤هـ - ١٦/٢/٢٠١٣م

إعداد

د. عبد الرزاق هرماس إسماعيل بن محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة الذاتية

الاسم: عبد الرزاق هرماس إسماعيل بن محمد
تاريخ الميلاد: ١٦ جمادى الأولى ١٣٨٠هـ موافق ٦ نوفمبر ١٩٦٠م.
الإطار الحالي: أستاذ التعليم العالي – كلية الآداب ـ جامعة ابن زهر- أكادير ـ المغرب.

١ – أنشطة البحث:

أ- الجوائز العالمية:

- الحصول على جائزة الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، فرع السنة النبوية لعام ١٤٢٨هـ في موضوع "مصادر السيرة النبوية بين المحدثين والمؤرخين" مناصفة.

ب- النشر في المجلات العلمية المحكمة خارج المغرب:

ضمن "مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية" التي يصدرها مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت:

- "لمحات عن المدونات الأولى في التفسير خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري"، العدد ٢٧ عام ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م ص ١٧-٨٦.
- "مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن" العدد ٣٨ عام ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ ك ص ٦١-١٥٩.
- "الاتجاهات المعاصرة في كتابة السيرة النبوية" العدد ٥٥ عام ١٤٢٤ هـ، ص ٧٩-١٤٤.

- "كتاب المغازي لمحمد بن عائذ ت ٢٣٣هـ تصنيفه ورواته واحتفال العلماء به" العدد٧٨ عام ١٤٣٠ه ص ٥٠٣- ٥٦١.

ضمن "حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية" تصدرها جامعة قطر:

- "مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النقد" العدد ١٦ عام ١٤١٩ هـ، ص ١١-٦١.
- "القرآن الكريم...ومناهج تحليل الخطاب" العدد ١٩ عام ١٤٢٢ هـ، ص ١١-٥٣.

ضمن دورية "الدارة" تصدرها دارة الملك عبد العزيز بالرياض:

- "مدرسة التفسير بالمدينة المنورة خلال القرن الأول للهجرة" العدد ١ السنة ٢٣ عام ١٤١٨ هـ، ص ٠٥-٥٤.

ضمن "مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود" الرياض:

- "التأليف في التفسير عند المحدثين" العدد ٢٦ عام ١٤٢٠ هـ، ص ١٣-٨٩.

ضمن "مجلة البحوث الفقهية المعاصرة" الرياض:

- "المذهبية الفقهية وأثرها في تفسير آيات الأحكام قديما وحديثا" العدد ٤٦ عام ١٤٢١ هـ، ص ٥٤-١٥١.

ضمن "مجلة جامعة أم القرى" بمكة:

- "علم التفسير في كتابات المستشرقين" العدد ٢٥ المجلد ١٥ عام ١٤٢٣ هـ، ص ٧٧-١٢٩.

ضمن "مجلة البحوث والدراسات القرآنية" مجمع الملك فهد، المدينة المنورة:

- "الدراسات القرآنية عند المستشرقين خلال الربع الأول من القرن الخامس عشر للهجرة" العدد السادس، السنة الثالثة، رجب ١٤٢٩ هـ، ص ٩٥ - ١٥٢.

ضمن "Journal of Qur'anic Studies" تصدرها كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن:

- "أثر القرآن الكريم في فهم السنة النبوية: أحاديث المغازي نموذجا" المجلد الثاني عشر، العددان الأول والثاني ٢٠١٠، ص ٣٣٨-٣٧١.

ج- النشر في المجلات الجامعية الوطنية:

- مجلة دار الحديث الحسنية العدد ١٤ سنة ١٩٩٧، ص ١٣-٣٩: "الاتجاه العلمي في التفسير: نشأته وتطوره".
- مجلة كلية الآداب بني ملال العدد ٣ سنة ٢٠٠١ م ص ٢٨٥-٣٠٣: "مدونة سعيد بن جبير في التفسير".
- مجلة الواضحة تصدرها دار الحديث الحسنية الرباط، العدد ٢ سنة ١٤٢٥ هـ، ص ١٠١-١٣٦: النزعة الإصلاحية المعاصرة في التفسير بالغرب الإسلامي.

ملخص البحث

يعرض هذا البحث لدعوى ترعرعت خلال العقود الأخيرة في أحضان المستشرقين المهتمين بالدراسات القرآنية، وقد قدمت من قبلهم على أنها تطوير غربي لمنهج فهم القرآن اعتمادا على أدوات معرفية حديثة مأخوذة مما تزخر به البيئة الثقافية والفلسفية الغربية من نظريات تطبق في مجال تفسير النصوص عامة.

ولأن الأدبيات المنشورة في الموضوع كثيرة، فإن هذا البحث حرص على تقريب "الدعوى" من القارئ في دراسة تقويمية مجملة تبعا لما تسمح به المشاركة في هذا المؤتمر، فجاء ذلك في ثلاث نقاط رئيسة:

الأولى : منطلقات هذه الدعوى من أقسام الدراسات الشرقية بالجامعات الأوربية، حيث تمت المناداة بتبني المناهج التي اعتمدها أساتذة اللاهوت هناك في دراساتهم الحديثة لتراثهم الديني وذلك بنقلها إلى مجال فهم القرآن الكريم، وقد عرض البحث لنشأة الدعوى ثم لتطورها خاصة في مرحلة الدراسات العليا بهذه الجامعات.

النقطة الثانية : حقيقتها، وترجع إلى خلفيتها الفلسفية وقد بين البحث كيف أن هذه الدعوى المنسوبة إلى فهم القرآن تنطلق من خلفية الاستعلاء الغربي، حيث يريد هؤلاء المستشرقون أن يصبحوا "منظرين" لما يجب أن يكون عليه منهج فهم القرآن، ولذلك حرصوا على تكوين عدد من المنتسبين إلى العالم الإسلامي في هذا المجال، والغاية من هذا الجهد التأكيد على "المركزية الأوربية Eurocentrisme" بالنسبة للمسلمين حتى في مجال فهم القرآن.

النقطة الثالثة: آفاق الدعوى وقد اهتم البحث بإبراز جانب من التقدير الإلهي الحكيم الذي اقتضى أن تتحول قلاع هذه الدعوى بالجامعات الغربية اليوم إلى أطلال مثل ديار عاد وثمود، ولم يبق من آثارها إلا جملة مصطلحات فلسفية لا زال بعض المؤلفين عن القرآن من دعاة الحداثة في العالم الإسلامي يرددونها بسبب ما توحي لهم به مخيلتهم من فهم عميم لثقافة ظنوها سلما للاستعلاء والمعرفة الحديثة.

توطئة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن ليكون للناس شرعة ومنهاجا، وأوكل بيان مجمله إلى رسوله ﷺ، أما تفسير مشكله فقد ندب أهل العلم في كل زمان لتدبره ورتب لهم على ذلك جزاء من عنده، فتنافسوا في خدمة هذا الكتاب من جهة تفسيره والاستنباط منه، ومعلوم أنه تعالى لم يكلف بهذه المهمة الشريفة من ليس من أهل الفقه بالقرآن ممن لم يرتفعوا إلى يفاع العلم عن حضيض الجاهلين، كما أنه لم يسندها لمن سبق في علمه تعالى أنهم ممن جعل "على قلوبهم أكنة" حجبت عنهم فقه آيات الوحي.

وهذا الموضوع "**دعوى فهم القرآن في ضوء مناهج العلوم الإنسانية الغربية: منطلقاتها وحقيقتها وآفاقها**" دراسة تهتم بعرض وتقويم "تجربة" معاصرة لفهم وتفسير القرآن ظهرت ونمت في أحضان معاهد الدراسات الأوربية وأشرف عليها لفيف من المستشرقين قبل أن يتردد صداها في العالم الإسلامي خلال زمن أفولها بمنبتها الأول.

وقد أردت أن تكون الدراسة عرضا وتقويما لهذه الدعوى.

أما العرض فقد كنت حريصا فيه على تقديم صورتها للقارئ اعتمادا على المصادر الأصيلة لمعرفتها،وعندما أضطر إلى الاختصار في العرض التزاما بشرط هذا المؤتمر كنت ألجأ إلى الإحالات في الهوامش لمن أراد التوسع.

أما التقويم فقد ارتأيت أن لا ألجأ فيه إلى تحكيم قواعد علم " أصول التفسير" حتى لا يتسع الكلام، لكنني عوضت ذلك بالنقد المنهجي

المؤسس على كشف حقيقة الدعوى وتعلقها ببيئة فكرية غربية مشبعة بالفلسفات والإيديولوجيات.

ولما كان ذلك هو شرطي في البحث فقد انتهيت في تقديري للموضوع إلى دراسته وفق الخطة التالية:

ابتدأت بمبحث تمهيدي عن **الجذور الأولى لهذه الدعوى في كتابات الغربيين**، وفيه ثلاثة مطالب:

- الأول: عرضت فيه لطلائع الاهتمام الغربي بتفسير القرآن وفهمه.
- والثاني: خصصته لاتجاهات البحث الاستشراقي المعاصر عن القرآن.
- والثالث: تكلمت فيه عن ارتباط هذه الدعوى بمعاهد دراسة "اللاهوت" قبل انتقالها إلى مجال الدراسات القرآنية بالغرب.

ثم جاءت بقية مباحث الدراسة متسلسلة من العام إلى الخاص كالآتي:

المبحث الأول: منطلق الدعوة إلى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية الغربية، وفيه

- المطلب الأول: علاقة الدراسات القرآنية في الغرب بدراسة اللاهوت.
- المطلب الثاني:الكنيسة الكاثوليكية وجماعات التفسير.
- المطلب الثالث: احتضان هذه الدعوى من قبل اليسار المسيحي

المبحث الثاني: الجامعة الغربية وأثرها في الترويج لهذه الدعوى، وفيه

- المطلب الأول: محاولات مترددة للترويج لهذه الدعوى.
- المطلب الثاني: الجامعة الفرنسية تتبنى هذا الترويج.
- المطلب الثالث: التنزيل الأولي لهذه الدعوى.

المبحث الثالث:حقيقة هذه الدعوى باعتبار خلفيتها النظرية ومرتكزاتها المنهجية، وفيه

- المطلب الأول: انطلاقها من خلفية"الاستعلاء الغربي".
- المطلب الثاني: الدعامات المنهجية لهذه الدعوى.
- المطلب الثالث: انعكاس هذه الدعوى خارج الجامعة الغربية.

المبحث الرابع: **تقويم الدعوى وآثارها وبيان آفاقها، وفيه**

- المطلب الأول: تقويمها من جهة المنهج.
- المطلب الثاني: أثرها في أوساط " هواة" التأليف عن القرآن.
- المطلب الثالث:آفاق الدعوى من منظور ما انتهت إليه.

أما المنهج الذي سرت عليه في البحث فقد قام على تتبع هذه الدعوى من خلال الكتابات الأصيلة التي نَظَّرت لها، وأود أن أشير هنا إلى أن المشروع الاستشراقي المعاصر المتعلق بفهم القرآن وتفسيره يتأسس على النظر في كتاب الله من خلال:

أولا: مناهج العلوم الإنسانية.

ثانيا: مناهج النقد الأدبي الغربي.

وذلك تقليدا لما يجري في مجال دراسة التوراة والأناجيل بمعاهد اللاهوت في الجامعات الغربية حيث زعم المستشرقون أنهم أرادوا بذلك تطوير الدراسات القرآنية؛ ولأن مجال الكتابة لا يتسع للحديث عما سبق كله، فقد أجملت الكلام عن دعوى فهم القرآن تبعا لمناهج العلوم الإنسانية فقط، واقتصرت من هذه الأخيرة أيضا على ما انتهى إليه النظر الاستشراقي في التأصيل للدعوى انطلاقا مما حرره هؤلاء عن الموضوع ضمن "دائرة المعارف الشاملة" في الإصدار الفرنسي.

وأخيرا أتوقف عند الهدف الذي حفزني للكتابة في هذا الموضوع فأشير إلى أن قصدي من ذلك هو تقديم رؤية متكاملة عن جانب من التصور المتعلق بتطوير تفسير القرآن في الغرب، خاصة وأن بعض دعاماته المنهجية تم انتحالها من قبل عدد من الكُتَّاب والمؤلفين بالعالم الإسلامي.

فأسأل الله السداد في القول والعمل، كما أسأله الهداية إلى سبيل الرشاد في فهم القرآن والتوفيق في النأي عن سبل الفتنة التي من أعظمها التقول عليه سبحانه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، والله أعلم وأحكم.

مبحث تمهيدي

الجذور الأولى لهذه الدعوى في كتابات الغربيين

ترجع علاقة الغربيين بالقرآن إلى قرون مضت حين اتجه العشرات منهم لمحاولة ترجمته إلى شتى اللغات واللهجات الأوربية، وكانت هذه الترجمات - التي جاءت مشوهة - منتهى طموحهم آنذاك[1]، لذلك لم يلتفتوا إلى التراث التفسيري حتى انتصف القرن التاسع عشر الميلادي عندئذ ابتدأ اهتمامهم بتفسير القرآن وكانت بواكير ذلك مع نشر المستشرق الألماني فرايتاج تـ ١٨٦١م كتاب "أسرار التأويل وأنوار التنزيل" للبيضاوي في ليبزيج عام ١٨٤٥م، وتزايد هذا الاهتمام مع إنشاء لجنة خاصة بالقرآن من قبل أكاديمية العلوم البافارية أشرفت على تمويل وتنظيم رحلات المستشرقين التدريبية إلى عدد من الحواضر الإسلامية آنئذ كانت أهمها القاهرة.

---

(١) انظر فهرسة علمية شاملة لهذه الترجمات عند د. حميدالله في ذيل ترجمته الفرنسية للقرآن ضمن: Le Coran;traduction intégrale; Paris 1959 (14 ed 1985)
وانظر أيضا عرضا لها إلى حدود ١٩٨٠م في المادة التي حررها المستشرق الألماني رودي بارت لدائرة المعارف الإسلامية ضمن:
R. Paret; La traduction du Kuran in Encyclopédie de l' Islam; T 5 pp431-433.

المطلب الأول

طلائع الاهتمام الغربي بتفسير القرآن وفهمه

لما ألف المستشرق الألماني شوالي[1] الجزء الثاني من كتاب "تاريخ القرآن" الذي ابتدأه أستاذه نولدكه[2] خصص في آخره مبحثا عرض فيه لخلاصة ما انتهت إليه الدراسات القرآنية عند المستشرقين إلى حدود ١٩٠٩م تاريخ نشر هذا الجزء، فقال عن اهتمام هؤلاء بتفسير القرآن:" لم يضع الغربيون إلى الآن تفاسير للقرآن بالمعنى الحقيقي، بعض النتائج التفسيرية لهؤلاء.. موجودة في سير النبي ﷺ وبعضها الآخر في دراسات منفردة ذات طبيعة متنوعة جدا وأخيرا ترد في ترجمات القرآن المزودة في العادة بملاحظات عديدة"[3].

والمتتبع للأدبيات الاستشراقية في هذه الحقبة سيخلص إلى أن هناك عائقين حدا من اهتمام هؤلاء بهذا الجانب من الدراسات المتصلة بالقرآن:

---

(١) فريدريش شوالي F. Schwally: ١٨٦٣- ١٩١٩م، اهتم بالدراسات القرآنية وكان تلميذا للمستشرق نولدكه الذي ائتمنه على تتمة كتاب" تاريخ القرآن" عندما عجز عن ذلك، والقسم الذي كتبه منه يتعلق بجمع المصحف ويوجد في الكتاب المعرب ما بين ص ٢٣٣ و٤٣٤، منشورات الجمل، كولونيا بألمانيا ٢٠٠٨م.

(٢) تيودور نولدكه T. Noldeke: ١٨٣٦-١٩٣٠م، انظر ترجمته عند عبدالرحمن بدوي موسوعة المستشرقين ص ٥٩٥-٥٩٨، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م دار العلم للملايين بيروت.

(٣) تاريخ القرآن ص ٤٣١.

الأول حجم التراث المتراكم في مجال التفسير واستحالة استقصاء المستشرقين لعيونه من الأمهات - حتى المطبوع منها - يدل على ذلك مثلا استنجاد كبارهم ممن كتبوا عن هذا العلم بكتب الأدب واعتبارها مصادر للتأليف عنه[١].

الثاني صعوبة إلمام المستشرقين بتصور ضابط يمهد لهم فهم علم التفسير، حيث ظل تفسير كتاب الله - القائم على أصول علمية - في أذهان أجيال من هؤلاء حبيس تصور مذهبي ضيق أدى في كثير من الأحيان إلى تبني تصورات عن القرآن وفهمه في غاية الغرابة نجد لها جذورا في التراث الديني اليهودي أو المسيحي.

ولعل أشهر ما حرره هؤلاء عن تفسير القرآن مطلع القرن العشرين:

أولا "ملحوظات نقدية حول الأسلوب والتركيب في القرآن " الذي نشره الألماني نولدكه بستراسبورج عام ١٩١٠م[٢].

ثانيا "مذاهب التفسير الإسلامي" الذي نشره المستشرق المجري جولد تسيهر في ليدن عام ١٩٢٠م[٣].

---

(١) من هذه الكتب على سبيل المثال: "الأغاني" لأبي الفرج، وانظر في ذلك صنيع جولد تسيهر ت ١٩٢١م في مذاهب التفسير الإسلامي ص ١٠٧، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ دار أقرأ بيروت، ترجمة عبدالحليم النجار.

(٢) ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية عام ١٩٥٣م من قبل المستعرب الفرنسي بوسكي G.H.Bousquet بعنوان:

Remarques critiques sur le style et la syntaxe du Coran; ed Maisonneuve Paris

(٣) ترجم هذا الكتاب مرتين:الأولى عام ١٩٤٤م بعنوان: المذاهب الإسلامية في
==

والكتابان حافلان بالأراجيف الناتجة عن تعصب مذهبي لم يلبث أن انعكس في كثير من كتابات المستشرقين بعدهما إلى أيامنا الراهنة.

غير أن توسع هذا الاهتمام الغربي بالقرآن وتفسيره يكاد يكون مرتبطا بمشروع إصدار "دائرة المعارف الإسلامية" الذي تبناه المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين بجنيف ١٨٩٤م، وقد أنجز هذا المشروع ما بين ١٩١٣م-١٩٤٢م(١)؛ فقد تضمنت هذه الدائرة عددا من المواد ذات الصلة بالقرآن حرص محرروها من المستشرقين من مختلف الجنسيات الأوربية على أن يضمنوها مختلف آرائهم بخصوص "مصدر" القرآن وعلمي القراءات والتفسير...، ولم تكن هذه الآراء مختلفة عما درجوا عليه من طعن في نبوة محمد ﷺ، وادعاء بأن تفسير القرآن مجرد انتحال لتراث أهل الكتاب الذين عاشوا تحت راية الإسلام كما يقف على ذلك كل مطلع على مادة "تفسير" التي كتبها "كاراديفو" للإصدار الأول من الدائرة (٢)
.

==

تفسير القرآن الكريم، تعريب على حسن عبدالقادر، مطبعة العلوم؛والثانية عام ١٩٥٤م وهي المشار إليها في هامش سابق.

(١) ظهرت هذه الدائرة في إصدارين: الأول اكتمل عام ١٩٤٢م في أربعة مجلدات وخامس إضافي بالفرنسية والانجليزية والألمانية،وهذا الإصدار هو الذي ترجم قسم منه إلى العربية، أما الإصدار الثاني فقد ابتدأ عام ١٩٥٤م واكتمل قبل سنوات فقط في اثني عشر مجلدا في لغتين الفرنسية والانجليزية.

(٢) توجد هذه المادة ضمن القسم المعرب من الدائرة في المجلد الخامس، حرف التاء.

المطلب الثاني

اتجاهات البحث الاستشراقي المعاصر عن القرآن وصلتها بالكتابة عن التفسير

هناك اتجاهان رئيسان في مجال البحث المتعلق بالقرآن في الغرب:

الأول يدعو إلى ما اصطلح عليه المستشرقون بـ "الدراسة التاريخية النقدية".

والثاني يتبنى فكرة إخضاع القرآن لمختلف الأدوات التي عرفت في مجال العلوم الإنسانية(١).

وإذا كان الاتجاه الأول بحكم تأثره المباشر بالدراسات التقليدية في اللاهوت الكاثوليكي انتهى إلى اعتبار القرآن "نتاج البيئات اليهودية والمسيحية في الجزيرة العربية ومحيطها في القرن السادس الميلادي"(٢)، فإنه تبعًا لذلك سعى إلى" الاستدلال" على هذه الفرية بأطراف من قصص الأنبياء والأمم السابقة التي وردت في القرآن وتعرضت لها نصوص التوراة والأناجيل التي بأيدي الناس...، وهذا الاستدلال الذي لا تخفى خلفياته المذهبية تقمصته أجيال من المستشرقين أفنوا أعمارهم في تكلف إثبات

(١) C. Gilliot; in Encyclopaedia universalis corpus 6 p. 547

(٢) انظر: كارا ديفو، مادة تفسير ضمن ج٥ من القسم المعرب من الدائرة، وأيضا: رضوان السيد، الدراسات القرآنية في الاستشراق الألماني، مجلة البيان (تصدرها جامعة آل البيت) المجلد ١ العدد٤، ١٤١٩هـ.

فرضية مؤداها أن علم التفسير مستمد من أخبار أهل الكتاب التي روجها القصاص في صدر الإسلام وأدخلها المفسرون إلى كتبهم بعد عصر التدوين[١].

ولست بحاجة إلى تتبع تطور هذا الاتجاه الغربي في الكتابة عن القرآن وتفسيره منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي؛لأن ذلك سيؤدي إلى الاستطراد في مباحث ثانوية بالنسبة لموضوع البحث، لذلك أكتفي بالإشارة إلى أن أي جديد يطرأ في مجال دراسة اللاهوت ينعكس سريعا على دراسة القرآن ولو لم توجد له أية صلة بهذا الكتاب، من أغرب الأمثلة في ذلك ما تم تداوله منذ سنوات عن اكتشاف مخطوطات "توراة" قديمة عثر عليها عام ١٩٤٧م في موقع (قمران) ـ شمال غرب البحر الميت. وهي مكتوبة بالعبرية وبعضها بالآرامية[٢]، فقد تلقفتها طوائف مسيحية بدعوى الاستفادة منها في مجال دراسة اللاهوت، ونقد "الكتاب المقدس"، ثم لم يمض سوى زمن قصير حتى تنادى نفر من المستشرقين وتلامذتهم المتغربين داعين إلى الاستفادة منها أيضا في مجال إعادة دراسة

---

(١) أنظر على سبيل المثال كليمان هوار تـ ١٩٢٩م،" وهب بن منبه والتراث اليهودي المسيحي باليمن"، منشورة بالفرنسية في: Journal Asiatique; T4 juillet - août 1904، وأيضا ريجس بلاشير، التفسير القرآني أصوله وأغراضه ضمن: القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره ص ١٠٦-١٢٨ الطبعة الأولى ١٩٧٤م دار الكتاب اللبناني، ترجمة رضا سعادة.

(٢) نشرت مترجمة إلى العربية عام ١٩٩٨م بعنوان "التوراة: كتابات ما بين العهدين"، دار الطليعة دمشق، ترجمة موسى الخوري.

تاريخ المصحف رغم أنه لا صلة للقرآن بهذه المخطوطات العبرانية التي لم يعترف بها حتى أحبار اليهود[١].

أما الاتجاه الثاني من البحث الاستشراقي عن القرآن فقد كان متأثرا باللاهوت البروتستانتي الذي ربط الأديان بالثقافات، ودعا لإخضاع النصوص الدينية إلى مختلف المناهج التي عرفت في مجال الدراسة الأدبية عامة..، ومن هنا دعوته لإيجاد "سوسيولوجيا " و"أنثروبولوجيا" و"سيميولوجيا" و"فينومنولوجيا" الأديان، وكان الغرض من هذه الدعوى - كما سيأتي - التخلص من سلطان الكنيسة الكاثوليكية وإشرافها على فهم وتفسير نصوص التوراة والأناجيل حماية للمعتقدات التي دأبت على الدفاع عنها.

وهذا الاتجاه الثاني هو الذي يهمنا في هذا البحث؛ لأن لفيفا من المستشرقين حرصوا ابتداء من منتصف القرن العشرين على الدعوة إلى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية التي طبقت في مجال دراسة النصوص المسيحية حتى يفتحوا المجال للتخلص من أصول وقواعد علم التفسير التي تضبط فهم القرآن والاستنباط منه، ومن هذا المنطلق يصلون إلى الطعن في علم تفسير القرآن بدعوى نقده، ويدخل ضمن هذا النقد التطاول على ما صح منه عن النبي ﷺ والسلف ولو نقل بأوثق الأسانيد.

(١) من هؤلاء التلاميذ محمد أركون، انظر دعوته تلك في كتابه: تاريخية الفكر العربي الإسلامي ص ٢٩٠-٢٩١، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، منشورات مركز الإنماء القومي بيروت، ترجمة هاشم صالح.

وقد تلقف دعوة هؤلاء بعد ذلك نفر من تلامذتهم "المتغربين" الذين درسوا في أوربا قبل خمسة عقود فروجوا لها، ثم ما لبثت أن شاعت بين كثير من الكتاب المعاصرين الذين يجهل جُلَهم أُسسها النظرية وخلفيات نشأتها الدينية في سياق الصراع والتنافس الطويل بين الكنيسة الغربية وخصومها هناك، وستأتي الإشارة إلى بعض هؤلاء في حدود ما يسمح به مجال هذا البحث.

المطـلب الثالث

ظهور هذه الدعوى في مجال دراسة اللاهوت وانتقالها إلى مجـال الدراسـة القرآنـية بالغـرب

تذكر "دائرة معارف الديانات والأخلاق" أن ألمانيا شهدت خلال القرن التاسع عشر الميلادي - تحت تأثير النزعة البروتستانتية - حملة لنزع اختصاص تفسير النصوص الدينية من رجال الكنيسة، حتى يصبح ذلك من حق المشتغلين بالفلسفة والتاريخ والآداب قديمها وحديثها، وأشهر من وضع الأسس النظرية لذلك "عالم اللاهوت" فريدريش شلاير ماخر Friedrich Schleirmacher تـ ١٨٣٤م، وكان منطلق نظريته أنه لا يوجد فارق بين النصوص الدينية والكتابات الأدبية، ففتح بذلك الباب لتجربة جميع " الصيحات" المنهجية التي تظهر في الدرس الأدبي على نصوص المسيحية ولو كانت هذه المناهج بينة الشذوذ[١].

بعد شلاير ماخر - الذي اقتصر في دعواه على النصوص المسيحية -

(١) انظر أثر هذه النزعة في تفسير القرآن حديثا عند:
- د.السيد أحمد خليل، دراسات في القرآن ص ١٣٧-١٤٩، دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٩م.
- د. فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ج٣ ص٩٨١-٩٨٢، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ الرياض.

جاء بلديه يوليوس فيلهاوزن Julius Wellhausen تـ ١٩١٨م - أستاذ دراسة اللاهوت - فأراد تجربة هذه النظرية على القرآن عندما أسند إليه سنة ١٨٩٠م كرسي الدراسات الشرقية بجامعة جوتنجن.

وإذا كان فيلهاوزن قد اشتهر في الكتابات العربية الحديثة بأنه أول ناشر لقسم من مغازي الواقدي بعد ترجمته إلى الألمانية ما بين ١٨٨٢ و١٨٨٥م، فإنه يعتبر بين المستشرقين الألمان مؤسس الدراسات المرتبطة بالقرآن بعد أن أنفق سنوات من حياته في سبيل الترويج لفرضية ارتباطها بالتراث الديني اليهودي خاصة منه ما سماه " القصص التلمودي المفسر لأحداث التوراة"(١).

وفي بحث للدكتور رضوان السيد عن "الدراسات القرآنية في الاستشراق الألماني" قال: " ... ركز فيلهاوزن في دراساته الإسلامية الأولى على (الجماعة) الدينية الإسلامية، ووظيفة النص القرآني في أوساطها، وقضايا التجربة الحية للجماعة الأولى مع نبيها ونصها المُوحَى، مطبقا بذلك ما سبق له أن فعله في مجال القراءة المتساوقة بين النص والنبي والجماعة لدى العبرانيين القدماء"(٢). وقد أدى هذا التوجه الاستشراقي الذي قاده الألمان منذ القرن التاسع عشر إلى نتيجتين:

---

(١) د. محمد عوني عبدالرؤوف وإيمان السعيد،جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة ج٢ص ١٣٣، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ، مكتبة الآداب القاهرة.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: رضوان السيد الدراسات القرآنية في الاستشراق الألماني؛ مرجع سابق.

- الأولى: إدراج الدراسات القرآنية عند المستشرقين ضمن دراسات الأدب العربي نثرا وشعرا(١).
- الثانية: توجيهها بأقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الألمانية ثم الغربية لتصبح تابعة لدراسات اللاهوت المسيحي من ناحية المناهج.

وهذا ما جعل هذه الدراسات خاضعة لكل جديد طارئ في مجال النقد الأدبي الذي أصبح مع "حداثة" القرن العشرين متأثرا بمناهج العلوم الإنسانية، وبرز ذلك بجلاء مع نشأة ورواج مختلف المناهج "الحداثية" مطلع ذلك القرن، واستفحل الأمر بعد أن غدت هذه المناهج "مطية ذلولا" لدعاة مختلف الفلسفات والإيديولوجيات في النصف الأخير منه، لما أصبحت كثير من الجامعات الغربية وبخاصة في فرنسا ذات ألوان سياسية أو فكرية سواء تعلق الأمر باليمين أو اليسار(٢).

---

(١) نجد على سبيل المثال شارل بيلا في تاريخ اللغة والآداب العربية يتكلم عن القرآن والتفسير ضمن مبحث سماه "النثر المسجوع"، ص ٨٣-٨٦، الطبعة الأولى ١٩٩٧م دار الغرب الإسلامي بيروت، تعريب رفيق بن وناس وآخران، والشيء نفسه نجده عند ريجس بلاشير في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر(بالفرنسية).

(٢) مثال ذلك أن جامعة نانتير Nanterre كانت قلعة لليسار وفي مقابلها السربون القديمة كانت معقلا لليمين الفرنسي، أما جامعة باريس الثامنة Saint Denis فقد كانت معقلا لطائفة يهودية.

المبحث الأول

منطلق دعوى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية الغربية

لعله من الأنسب الإشارة مقدما إلى أن هذه الدعوى لم تسفر عن وجهها علنا سوى في عقد الستينيات من القرن العشرين أي العقد التاسع من القرن الهجري الماضي، وقبل ذلك كانت منحصرة في أوساط المستشرقين المهتمين بتاريخ الإسلام، وبحكم أن مؤتمرات المستشرقين هي ملتقيات يتدارسون فيها سبل، تطوير طرق العمل، فقد كانوا يعرضون ويناقشون خلالها أية وسيلة جديدة يريدون إدخالها إلى مجال التخصص قبل اعتمادها[1]، وفي هذا السياق نظموا أول مؤتمر لهم حول موضوع "السوسيولوجيا الإسلامية" ببروكسيل في الفترة ١١ إلى ١٤ سبتمبر ١٩٦١م ناقشوا فيه إمكانيات إدخال مناهج العلوم الإنسانية - رسميا - إلى مجال الدراسة المهتمة بالإسلام[2].

وبعد هذا التاريخ توالت المؤتمرات لكن الملاحظ أن كبار المستشرقين المشتغلين آنذاك بالقرآن ظلوا بعيدين عن تبني هذه الدعوى، التي لم يكتب لها الرواج إلا بتجنيد عدد من العرب ممن درسوا بأوربا وتخصصوا

---

(١) د. المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ص ١٩٧، ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت العدد١٦٧ عام١٤١٣هـ

(٢) Maxime Rodinson; La fascination de l' Islam; p103 Maspero Paris 1980

أصلا في مجالات بعيدة عن العلوم الشرعية، حيث أُسْنِدَ إليهم فيما بعد التنظير لها عن طريق انتحال طائفة من الأدبيات المشابهة التي ألفها جامعيون غربيون متخصصون في دراسة اللاهوت أو الفلسفة(١).

المطلب الأول

علاقة الدراسات القرآنية في الغرب بدراسة اللاهوت

بغض النظر عن كون الترجمات الغربية للقرآن تولاها طيلة قرون "رجال دين مسيحيون"، فقد ارتبط الاهتمام بالتفسير وبالدرس القرآني عامة في الجامعات الأوربية "بعلماء لاهوت" عمل كثير منهم في كليات تابعة للكنيسة، يشهد لذلك أن مشاهير المستشرقين المنتسبين للتخصص استهلوا عملهم بالاشتغال على التوراة أو اللغة العبرية أو اللاهوت المسيحي قبل انتقالهم إلى مجال التفسير بل حتى القراءات(٢).

(١) من أشهر هؤلاء اللاهوتيين: بول ريكور تـ ٢٠٠٥م والمستشرق الراهب لويس غارديه تـ ١٩٨٦م.

(٢) أشهر المستشرقين المهتمين بالقراءات:
جوتهلف برجستراسر تـ ١٩٣٢م كان مسيحيا بروتستانتيا انتقل من دراسة العبرية للاهتمام بالقرآن والقراءات خاصة. وأوتو برتسل تـ ١٩٤١م كان تخصصه الأول في التوراة، قبل الانتقال إلى الاهتمام بكتب أبي عمرو الداني بتأثير من أستاذه براجستراسر، انظر: بدوي موسوعة المستشرقين ص ٨٢- ٨٧، ويرى الباحث أن ==

وعندما ظهرت بأوربا الجامعات الحديثة كانت متأثرة بطريقة تنظيم الكنيسة للتعليم العالي الذي لم تتدخل فيه الدولة إلا بأخرة[1]، ومن ثم تضمنت هذه الجامعات الحديثة" أقساما للدراسات الشرقية" دخلت في اختصاصاتها اهتمامات واسعة جدا تشمل:

دراسة اللغة العبرية التي هي بحسبهم لغة "الكتاب المقدس" والدراسات العربية والسريانية والنصرانية الشرقية... ولا يكاد يحد مجال اهتمام هذه الأقسام سوى عامل وحيد هو التخصص الدقيق لرئيسها واهتمامات تلاميذه الذين يشتغلون معه.

ففي ألمانيا مثلا توجد الدراسات الشرقية في أربع وعشرين جامعة - دون احتساب المعاهد المستقلة ـ لكن الدراسات القرآنية لا توجد أساسا

==

التفات هؤلاء إلى كتب القراءات وراءه خدمة غرض معين هو اعتبار اختلافها اختلاف مخطوطات، وذلك حتى يفتحوا الباب للادعاء بتعدد المصاحف كما تعددت الأناجيل.

(١) كانت نشأة الجامعات الكاثوليكية بأوربا متأثرة بمؤسسات التعليم في العالم الإسلامي خاصة في قرطبة، كما يذهب إلى ذلك المستعرب جورج مقدسي، ولذلك ظهرت الكليات الأوربية الأولى وسط الكاتدرائيات (الكنائس الكبرى) تأثرا بالمساجد الجامعة، ولما كان الأساتذة رهبانا فقد دخلت بذلتهم السوداء الطويلة الأعراف الجامعية خاصة في مناقشات الدرجات العلمية العليا، بل إن لقب دكتور Docteur مأخوذ من اسم Doctrine التي تعني "عقيدة"، ولما انتشرت الجامعات الحديثة بأوربا لم تتخلص من هذا الإرث، وانظر: ج مقدسي،"نشأة الكليات معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب"، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز جدة، ١٤١٤هـ، ترجمة محمود سيد محمد.

إلا في ثلاث منها هي: جامعة برلين الحرة بـ "معهد الدراسات العربية"[1] وجامعة جوتنجن بـ "معهد الدراسات العربية"[2]، وجامعة ميونيخ بـ" معهد الدراسات السامية"[3].

أما في فرنسا فقد اشتهرت ست جامعات باحتضانها لأقسام الدراسات الشرقية دون احتساب مراكز البحث المستقلة عن جامعات باريس وجامعات الأقاليم[4]، لكن الدراسات المتصلة بالقرآن والتفسير ارتبطت بثلاث منها هي: جامعة باريس الرابعة - السربون القديمة - بها "معهد الدراسات العربية والإسلامية" وجامعة باريس الثالثة - السربون الجديدة - بها "معهد الدراسات العربية والإسلامية"، وجامعة اكس أن بروفانس قرب مرسيليا؛ وما ذكر عن ألمانيا وفرنسا يصدق على ايطاليا وانجلترا.

وإذ نذكر هذه الأقسام تحديدا يجب التنبيه إلى أمور ثلاثة:

الأول- أن أقسام الدراسات الشرقية ما هي في الواقع سوى شعب من كليات اللاهوت القديمة قبل توسيعها مع ظهور الجامعات الحديثة، يشهد لذلك تاريخ الجامعات الغربية...، فالملك فرانسوا الأول تـ ١٥٤٧م ـ مثلا ـ لما واجهه جمود السربون القديمة ـ التي كانت ترعاها

(١) جهود المستشرقين – مرجع سابق – ج٢ ص٣١٨.

(٢) غرنوت روتر، الدراسات العربية بجامعة توبنجن، دورية الفكر العربي العدد ٣٢ سنة ١٩٨٣م ج ٢ ص١٨٧...

(٣) جهود المستشرقين – مرجع سابق – ج ٢ ص ١٧.

(٤) أنظر: Journal Asiatique; T 261 fas 1-4; année 1973 p 91

الكنيسة . على أربع كليات هي(اللاهوت والحقوق والطب والفنون) ورفضها لأي تطور،أنشأ إلى جانبها "كوليج دو فرانس Collège de France" باسم (القراء الملكيين) الذي ابتدأ اهتمامه بالعبرية لغة "الكتاب المقدس" عندهم عام ١٥٣٠م ثم أضيفت إليها العربية عام ١٥٧٨م[١]، وبعد نجاح التجربة انتقلت إلى الجامعات القديمة.

الأمر الثاني - أن أشهر المستشرقين المشتغلين بالدراسات القرآنية استهلوا تكوينهم بتعلم وتدريس العبرية التي هي المرحلة الأولى للتخصص في اللاهوت ومنها انتقلوا إلى القرآن، وهذا حال: تيودور نولدكه[٢] وجولد تسيهر[٣] وبرتسل[٤] وكراديفو[٥].

الأمر الثالث - أن التوجه التخصصي الغالب على أي قسم منها يرتبط بمؤسسه أو المشرف عليه ثم بتلاميذه بعد تقاعده، ففي جامعة جوتنجن بألمانيا على سبيل المثال - التي اشتهرت خلال نصف القرن الأخير بتزايد اهتمامها بالدراسات القرآنية نجد سبب ذلك يرجع إلى المستشرق رودي باريت Rudi Paret تـ ١٩٨٢م[٦]، الذي اشتغل بهذه الجامعة منذ ١٩٥١م

(١) المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ص٩٧-٩٨.

(٢) انظر: بدوي، موسوعة المستشرقين ص ٥٩٥.

(٣) المرجع السابق ص١٩٨.

(٤) نفس المرجع ص ٨٢.

(٥) نفس المرجع ص٤٦٢.

(٦) ميشال جحا، مستعربان ألمانيان بارزان: هلموت ريتر ورودي باريت، دورية الفكر العربي العدد٣١ سنة ١٩٨٣م، ج ١ص ٣٣٨-٣٤٩.

وكان طيلة سنوات رئيسا للقسم واستطاع تخريج جيل كامل من الطلبة أصبحت معهم الدراسات القرآنية مكونا رئيسا في جل المؤتمرات التي يعقدها المستشرقون الألمان[1].

المطلب الثاني

الكنيسة الكاثوليكية الحديثة وجماعات التفسير

شهدت أوربا منذ منتصف القرن التاسع عشر ظهور العديد من الطوائف المسيحية والتيارات الدينية،الأمر الذي دفع الكنيسة الكاثوليكية بالفاتيكان عام ١٩٠٢م إلى إنشاء "اللجنة الإنجيلية الأسقفية للدراسات الكاثوليكية " التي أسندت لها تفسير النصوص المسيحية والإشراف على الدراسات الإنجيلية[2]، لكن ذلك لم يمنع الطوائف الدينية النصرانية

(١) تجاوزت مؤتمرات المستشرقين الألمان المتخصصة في الدراسة القرآنية حدود بلدهم، ومن أهم ما نظموه في السنوات الأخيرة مؤتمر " نتائج البحث المعاصر في القرآن" بمعهد الشرق في بيروت أيام ٨ إلى ٢٠٠٢/٩/١٣م، وانظر: ع. هرماس،الدراسات القرآنية عند المستشرقين خلال الربع الأول من القرن الخامس عشر للهجرة، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، المدينة المنورة العدد ٦ عام ١٤٢٩هـ ص١٢٣.

(٢) انظر ما نقله مؤلفا: خديعة مخطوطات البحر الميت مايكل بيجنت وريتشارد لي ص ١٤٧ عن الموسوعة الكاثوليكية الحديثة، الطبعة الأولى ٢٠١٠م منشورات صفحات للدراسات والنشر دمشق، ترجمة وسيم عبده.

"الحديثة" من مزاحمتها في هذا المجال، وظهر أثر ذلك في عدد من الجامعات العلمانية أواللائكية التي احتضنت أقسام الدراسات الشرقية، كما برزت هذه المزاحمة بشكل أوضح في كليات ومعاهد اللاهوت التابعة لمختلف الكنائس في أوربا مثل "الجامعة الكاثوليكية" بميلانو في ايطاليا و"جامعة لوفان" ببلجيكا و"المعهد البروتستانتي لدراسة اللاهوت" في باريس ومونبوليي بفرنسا.

وإذا كانت الدراسات القرآنية التي ظهرت بأوربا منذ منتصف القرن التاسع عشر قد تأثرت بمناهج دراسة اللاهوت خاصة تلك التي قام بها الدارسون البروتستانت في ألمانيا كما تقدم في المبحث التمهيدي،فإن هذا التأثير ازداد وتشعب بدءا من منتصف القرن العشرين لأسباب أربعة رئيسة هي:

١- تعدد واختلاف مناهج وطرق فهم النصوص المسيحية تبعا لتناسل وتكاثر التيارات والطوائف الدينية النصرانية في أوربا، حتى إن "مجلس الكنائس العالمي" أصبح يضم اليوم ثلاثمائة وسبع وأربعين كنيسة أمهاتها في أوربا، والذي يميز بينها أساسا هو طريقة كل واحدة في فهم نصوص الأناجيل.

٢- تغلغل التيارات الإيديولوجية بين منظري هذه الطوائف المسيحية، فنجد - مثلا - في الكاثوليك يسار ويمين، وفي البروتستانت نفس الشيء وهلم جرا...، وكان لهذه الإيديولوجيات تأثير ظاهر في مجال التنظير لمناهج تفسير النصوص الدينية المسيحية وفي تعددها واختلافها.

٣- سعي هذه الطوائف لاكتساح الفضاء الجامعي أي معاهد اللاهوت وأقسام الدراسات المتخصصة لاستقطاب الطلبة المتميزين الأمر الذي قادها إلى صراعات فيما بينها داخل الحرم الجامعي الذي أصبح بعضه شبه موبوء[١].

٤- غرق منظري هذه الطوائف في "مستنقع" الفلسفات المعاصرة كالوجودية والبنيوية وما بعدها من النظريات التي أنتجها الترف الفكري الغربي وأصبحت "محكمة" في مجال فهم وتفسير النصوص أدبية كانت أو دينية...

ولهذه الأسباب تعددت مدارس التفسير دون أن تستطيع الكنيسة الكاثوليكية ولا غيرها الحد منها أو ضبطها[٢]؛ وبلغ الأمر درجة التناقض في تفسير النصوص المسيحية، بل أضحى ذلك مطلوبا مع انتشار النزعة البنيوية ونظريات التفسير التي تولدت عنها، ثم أصبحت معاهد دراسة اللاهوت وبخاصة في الجامعات اللائكية مثل الجُزُر المُنْعَزلة، كل معهد منها له تفسيره ومنهجه في الفهم تبعا للنظرية التي يتبناها، وفي دولة كفرنسا تسمح أنظمتها الأكاديمية بذلك كما تشجعه قوانينها تطورت دراسات اللاهوت بعيدا، حتى إننا نجد لمعاهدها وأقسامها الدراسية - في هذا المجال - منظِّريها الذين يتولون الذب عن فهمها وتفسيرها،وأكثر من

---

(١) اديث كيروزيل، عصر البنيوية ص ٨٧-٨٨، منشورات عيون الدار البيضاء ١٩٨٦، ترجمة جابر عصفور.

(٢) انظر: مايكل بيجنت وريتشارد لي، خديعة مخطوطات البحر الميت،ص ١٤٧-١٤٩، الطبعة الأولى ٢٠١٠م،

ذلك نجدها تستفيد من مؤسسات كبرى للطبع والتوزيع تشرف على إصدار منشوراتها في سلسلات (Collections) منتظمة[1]، وفي بعض الأحيان يتم تجنيد هيئات دولية لخدمة هذه المشاريع.

وهذا الوسط "الموبوء" بالفلسفات والإيديولوجيات المتعددة كان هو "المهد" الذي احتضن قبل ستة عقود تقريبا تجربة إخضاع تفسير القرآن لمناهج العلوم الإنسانية، كانت بداية ذلك بادعاء الرغبة في الاستفادة من هذه المناهج في مجال الدراسات القرآنية بالغرب كما استفيد منها في "تطوير" دراسة نصوص اللاهوت المسيحي ما دامت الدراسات المهتمة بالأديان تختص بها نفس الأقسام بالجامعات، ثم تلقف هذه الدعوى لفيف من متأخري المستشرقين المشرفين على الدراسات العليا المرتبطة بالإسلام، ولأن ذلك تصادف مع خريف الحركة الاستشراقية وهِرَم أو هلاك "أعلامها" فقد تم انتداب نفر من طلبة الدراسات العليا المنتمين إلى العالم الإسلامي للإسهام في المهمة كما سيأتي بيانه.

(١) من أمثلة دور النشر تلك: ed Vrin وMaisonneuve et Larose وed Louvain...

المطلب الثالث

احتضان هذه الدعوى من قبل اليسار المسيحي الأوربي

أشهر جماعات التفسير التي نازعت الكنيسة الكاثوليكية الحديثة إشرافها على الدراسات الإنجيلية بأوربا تيار اتخذ من الإيديولوجية اليسارية "عقيدة" له وذلك في زمن كان فيه "لليسار السياسي" بريق يغشى عقول المنتسبين إلى مجال الفكر والفلسفة، وأقام هذا اليسار المسيحي فهمه لنصوص التوراة والأناجيل على ثلاث دعامات:

١- التأويل الرمزي لهذه النصوص الذي يقوم على مبدأ تعدد المعاني وعدم الاكتفاء بالدلالة المعجمية فقط[١] (٤٠)، وهذا التأويل شبيه بما عرُِفَ في التراث البدعي من تفاسير منسوبة إلى طوائف الباطنية من الإسماعيلية وزنادقة المتصوفة[٢] (٤١).

٢- المزج بين "العقلانية الحديثة" والقيم والتعاليم المسيحية بعد إضفاء التفسير المادي عليها.

٣- البحث عن "قيم أخلاقية" مسيحية لا تتقيد بتعاليم الكنيسة، وذلك

(١) من أبرز منظري هذا اليسار بول ريكور ت ٢٠٠٥م، وانظر كتابه بالفرنسية: "شيء من التأويل De l interprétation ".

(٢) لذلك اهتمت الكتابات الغربية بابن عربي وأمثاله كإخوان الصفا، وانظر: مذاهب التفسير الإسلامي، مبحث التفسير في ضوء العقيدة ص ١٢٠ وما بعدها.

بالتخلص من عقائدها بشأن "الخلاص" المسيحي وما ارتبط بذلك من تصورات خاصة بالخير والشر.

وعبثا حاول هذا اليسار تبرير خلافه مع الكنيسة الكاثوليكية بادعاء أنه يبحث عن "وسيلة علمية لدعم التقارب بين الكنائس العالمية" التي أصبحت طوائف مختلفة بسبب تنازعها واختلافها في تفسير نفس النصوص الدينية؛ وقد تحلق هذا التيار حول مجلة صدرت بفرنسا في أكتوبر ١٩٣٢م باسم "الفكر Esprit" أنشأها أحد منظِّري هذا التيار - آنذاك - هو مونيي امانويل Mounier Emmanuel تـ ١٩٥٠م، وكانت منتظمة في أعداد شهرية تخطت حدود أوربا الغربية لتوزع حتى في أمريكا الشمالية[١].

غير أن التنظير لهذا اليسار سيستوي على سوقه مع أشهر أعلامه وهو" بول ريكور Paul Ricoeur" تـ ٢٠٠٥م[٢]، وعن طريق هذا الجامعي الذي عمل في السربون القديمة(جامعة باريس الرابعة) ما بين ١٩٥٦-١٩٦٦م تعرف بعض طلبة الدراسات العليا العرب في الجامعة السابقة على هذا التيار المسيحي وعلى منهجه في تأويل النصوص الدينية، ومن هؤلاء الطلبة ـ السابقين ـ من سعى لتطبيق هذه النظريات على نصوص القرآن بدعوى فهمها وتفسيرها، كما أن ومنهم من "اقتنص" الفكرة فقط

(١) نشر هذا التيار المسيحي جميع أعداد هذه المجلة بما فيها القديمة في موقع خاص على شبكة الانترنيت.

(٢) ظل بول ريكور متنقلا لسنوات بين عدد من الجامعات " للدعاية " إلى اليسار الكاثوليكي، فمن جامعة ستراسبورغ إلى السربون إلى نانتير إلى لوفان إلى تورنتو إلى شيكاغو ودرس حيثما أنس التجاوب مع آرائه الخاصة في تفسير المسيحية.

وحصل بها على الشهادة العليا...، وكان أكثر هؤلاء بعيدين عن التخصص في العلوم الشرعية أصلا[١].

وما تنبغي إضافته هنا أنه إذا كان منطلق دعوى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية قد ارتبط كما تقدم بعدد من متأخري المستشرقين فإن الميدان الذي شهد المحاولات الأولى لتطبيقه هو ميدان "البحث الأكاديمي" بالجامعة الغربية حيث وجهت عن قصد عدد من الرسائل والأطروحات للاهتمام بهذه الدعوى عن طريق انجاز "أعمال علمية" تهدف إلى تطبيق هذه المناهج قسرا على آيات القرآن[٢]، وإذا كان جُل أصحاب هذه الرسائل قد انقطعت علاقتهم بالموضوع بعد التخرج من الجامعة الغربية وتحصيل الشهادة العليا فإن فئة قليلة منهم رأت في الدعاية لهذه المناهج تنظيرا وتطبيقا نوعا من الاستعلاء بالمعرفة الغربية، لكن تنظيرهم وقف عند حدود النقل والاقتباس أو الترجمة[٣].

---

(١) لأنه كان بإمكان الحاصلين حتى على الإجازة في القانون العام تغيير التخصص والانتقال إلى الدراسات الشرعية...

(٢) للوقوف على طبيعة هذا الإشراف "العلمي" يرجع إلى: المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ص ٢١٨ وما بعدها.

(٣) من الدراسات التقويمية الأولى التي عرضت لانتقال مناهج اليسار الأوربي هذه إلى العالم الإسلامي"كتاب ظاهرة اليسار الإسلامي: دراسة تحليلية نقدية" لمحسن الميلي، الطبعة الثانية ١٩٨٤م، مطبعة تونس قرطاج، تونس.

المبحث الثاني

الجامعة الغربية وأثرها في الترويج لهذه الدعوى

اشتهر في عدد من الكتابات المعاصرة القول بأن تطبيق مناهج العلوم الإنسانية على القرآن جاء في سياق شعور المستشرقين بتخلف المناهج التي كانوا يشتغلون بها في مجال علم التفسير فدفعهم ذلك الإحساس إلى استعارة مناهج الغربيين المشتغلين باللاهوت[1]، ويرى كاتب هذه الدراسة أن ابتداء هذه الدعوى له ـ فضلا عن ذلك ـ تعلق بأزمة الحركة الاستشراقية عندما غيب الهرم أو الموت أشهر أعلامها من أساتذة الدراسات الشرقية الذين تركوا بصماتهم في مختلف الجامعات الغربية، من أمثال آرتر جفري Artur Jeffery تـ ١٩٥٩م وريجس بلاشيرRegis Blachere تـ ١٩٧٣م ورودي باريت Rudi Paret تـ ١٩٨٣م...، فقد خلف من بعدهم لفيف من الغربيين الذين تصدروا الكراسي الجامعية من غير أن يكون لهم نفس المستوى من الاطلاع على المكتبة الإسلامية، إذ كان أغلبهم من العاملين في "إدارة المستعمرات" بالعالم الإسلامي أو كانوا خبراء في وزارات الخارجية بالغرب،ولما استغني عن خدماتهم استغلوا خبرتهم السابقة لولوج عالم الاستشراق؛ وفي حقبة خريف الاستشراق الكلاسيكي

(١) انظر مثلا: رضوان السيد، ثقافة الاستشراق ومصائره، دورية الفكر العربي العدد ٣١ عام ١٩٨٣م ج ١ ص٨.

وتقاعد أعلامه أصبح هؤلاء أساتذة بالجامعات أُسْنِد إليهم التدريس والإشراف على الرسائل والأطروحات الأكاديمية(١).

المطلب الأول
محاولات مترددة للترويج لهذه الدعوى

لم يكتب لهذه الدعوى الرواج بين المستشرقين الألمان الذين برزت طلائعها في بيئتهم، فبعد "التبشير" بها في محافلهم منتصف القرن العشرين ما لبثت أن تراجعت لتظل الدراسات القرآنية بألمانيا وفية لطابعها القديم القائم على تدقيق النصوص والاهتمام بالتراث المخطوط؛ وفي ذلك قال د. رضوان السيد في بحثه السالف عن (الدراسات القرآنية في الاستشراق الألماني): "... عندما تبلورت بعض الأفكار والتوجهات حول النص في الستينات من منطلق نظرية الأدب وقراءات البنى وتعدد المستويات، انصرف جيلان من المخضرمين ومستشرقي ما بعد الحرب إلى المزج بين التحليل النقدي للنصوص والتأريخ الثقافي للشخصيات والموضوعات...، بيد أن الإيجابيات الأولى لهذه النزعات التدقيقية سرعان ما أزاحتها جانبا نزعة جذرية... في أعمال أستاذين على الخصوص وهما: ألبريخت نوت Albrecht Noth تـ ١٩٩٩م وتليمان ناغل Tliman

(١) من أمثلة هؤلاء: جاك بيرك في فرنسا وبرنارد لويس في انجلترا ثم الولايات المتحدة بعد هجرته إليها.

Nagel..." [1]. وتعتبر اليوم جامعة جوتنجن هي معقل هذه الدراسات[2].

وإذا كان الألمان قد صرفوا أنفسهم عن الالتفات إلى هذه الدعوى كما تؤكد ذلك مؤتمرات مستشرقيهم، فلن نعدم من بينهم من احتفل بها، والإشارة هنا إلى المستشرقة أنجيليك نويفرث Angelika Neuwirth من جامعة برلين الحرة حيث يظهر من كتاباتها أنها متأثرة بمناهج النقد الأدبي التي ارتبطت بالنزعة البنيوية في قراءة النصوص الدينية[3].

أما في انجلترا فقد تركزت الدراسات القرآنية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية S.O.A.S التابعة لجامعة لندن، وقد أرسى وجودها المستشرق الأمريكي الأصل جوهن ادوارد وانسبروغ J.E.Wansbrough تـ ٢٠٠٢م[4]،

---

(١) انظر: رضوان السيد، الدراسات القرآنية في الاستشراق الألماني ضمن مجلة البيان ١٤١٩هـ.

(٢) وقد أسهم هؤلاء في انجاز تفسير بالألمانية في عشرة مجلدات تولاه المسيحي اللبناني - الأصل- عادل تيودور خوري.

(٣) أنجليكا نويفرت تتلمذت على أنطوان سبيتاليرAnton Spitaler تـ ٢٠٠٣م، وكانت أطروحتها للدكتوراه من جامعة ميونيخ عام ١٩٧٦م في موضوع" دراسة في تكوين السور المكية" طبعت بالألمانية عام ١٩٨١م، كانت لسنوات مديرة لمعهد الشرق في بيروت، وبعد تقاعدها تفرغت لمعهد الدراسات العربية بجامعة برلين الحرة،وهي من محرري مواد " دائرة معارف القرآن".

(٤) تخرج وانسبروغ من جامعة هارفارد تخصص التاريخ، وهاجر إلى انجلترا حيث عمل بجامعة لندن بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية،و ترجع شهرته في عالم الاستشراق إلى كتابه "الدراسات القرآنية: المصادر ومناهج التأويل " المنشور بالانجليزية عام ١٩٧٧م، وللإشارة توجد في انجلترا جامعات أخرى بها إلى ==

الذي نحا بهذه الدراسات بعيدا عن الالتفات لمناهج العلوم الإنسانية التي كان غيره من المستشرقين في بلجيكا وفرنسا يحاولون الاحتفال بها.

وبعد تقاعد وانسبروغ سار تلاميذه في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية على منواله، تدل على ذلك أكثر المقالات التي يقدمونها في مؤتمر الدراسات القرآنية الذي تعقده هذه الكلية كل سنتين، وقد نظم المؤتمر السابع منها في نونبر ٢٠١١م، كما تدل عليه أغلب موضوعات أعداد المجلة نصف السنوية التي تصدرها نفس الكلية منذ ١٩٩٨م باسم "مجلة الدراسات القرآنية Journal of Qur anic Studies ".

والشيء نفسه سار عليه المستشرقون المهتمون بالدراسات القرآنية في أمريكا الشمالية، إذ لم تحظ عندهم مناهج العلوم الإنسانية بكبير اهتمام، تشهد لذلك مواد أكبر موسوعة ألفها الغربيون عن القرآن وهي "دائرة معارف القرآن Encyclopaedia of the Qur'an" التي صدرت بالانجليزية بين عامي٢٠٠١-٢٠٠٦م في ست مجلدات واحتضنت مشروعها إحدى مؤسسات جامعة جورج تاون بإشراف لفيف من الأكاديميين يحمل جُلَهم الجنسية الأمريكية، إذ لم تعط هذه الموسوعة أهمية تذكر لهذه الدعوى رغم وفرة المواد التي تضمنتها الدائرة، فقد خصصت موضوعا مسهبا لمادة " تفسير" Exegesis ضمن المجلد الثاني[1]، وتحت هذه

==

اليوم أقسام للدراسات الشرقية مثل جامعة ويلز، لكن الغالب على اهتمام أساتذتها من الأوربيين والعرب والأفارقة السود هو الآداب.

(١) تترجح لدي ترجمة مصطلح Exégèseبـ " تفسير"،وترجمة Inerpretation بـ ==

المادة جاء الكلام عن موضوعين رئيسين:

الأول – عن "تفسير القرآن قديما Exegesis of the quran; classical and medieval"،من تحرير المستشرق الفرنسي المعاصر كلود جيليو Claud Gilliot تكلم فيه عن نشأة التفسير وتطوره إلى بداية القرن الثالث عشر للهجرة[1].

الموضوع الثاني – عن " التفسير في الحقبة الحديثة والمعاصرة "Exegesis of the quran; early modern and contemporary"، من تحرير المستشرق Rotraud Wielaudt من جامعة بامبرج Bamberg بألمانيا، عرض فيه للتفسير منذ محمد عبده إلى اليوم[2] ولم يلتفت إلى دعوى الاستفادة من العلوم الإنسانية في فهم القرآن أو تفسيره.

==

"تأويل"، وترجمة Commentaire بـ " تعليق"، وان كان بعض المستشرقين لا يجدون فارقا بين المصطلحين الأول والثالث.

(١) Encyclopeadia of the qur'an ; T 2 pp99-124 ; Brill 2002

(٢) Ibid T2 pp 124-142

المطلب الثاني

الجامعة الفرنسية تتبنى الترويج لهذه الدعوى

أكثر ما تم الترويج لها بين مستشرقي فرنسا ومن تأثر بهم من مستشرقي بلجيكا وهولندا، لكن التنظير تولاه الفرنسيون بحكم ميل الأكاديميين منهم إلى التمسك بمختلف نزعات الحداثة وما بعدها مهما كانت مغرقة في التجريد، إذ سرعان ما تنتقل هذه النزعات من الجامعة إلى النوادي الثقافية بل تصبح موضع اهتمام الصالونات والمقاهي الأدبية التي يرتادها " المثقفون" الفرنسيون والوافدون على السواء.

وفضلا عما شهدته فرنسا منتصف القرن العشرين من انتشار واسع لمختلف المذاهب السياسية من اليمين واليسار، فقد احتضنت - أيضا - تيارات فكرية وفلسفية ودينية متنوعة ومتصارعة في أحيان كثيرة، ووجد ذلك كله من ينافح عنه في الوسط الجامعي الذي تجسد خاصة في كلية الآداب "بالسربون "التي كانت لها مكانة وطنية ودولية متميزة[1]، ففي هذه المؤسسة الجامعية وجدت "المادية التاريخية" (لباب الماركسية) من

(١) تأسست نواة السربون القديمة في القرن الثالث عشر الميلادي، وفي عام ١٦٢٢م شيدت بناياتها العتيقة الأولى، وابتداء من ١٨٠١م اكتسبت هويتها الحالية باعتبارها جامعة تهتم بالآداب والعلوم الإنسانية، وقد جرى توسيع مبانيها ما بين ١٨٨١و ١٩٠٢م لتصبح كما هي عليه الآن.

يطبقها منهجا في الفهم، كما صادفت "الوجودية" من يتمسك بها أداة للتحليل، ولقيت "البنيوية" بنزعاتها المختلفة من يعتبرها وسيلة مثلى للبحث العلمي؛ وكان أساتذة الفلسفة متربعون على "عرش التنظير" سواء تعلق الأمر بالأدب أو التاريخ أو الاجتماع أو الأديان، كما كانت دراسة الفلسفة واللاهوت المسيحي تتم غالبا في نفس المعاهد سواء كانت تابعة للجامعات أو مستقلة عنها.

ومن المؤسسات التي احتضنتها هذه الجامعة العريقة آنذاك "معهد الدراسات العربية والإسلامية"، فكان ينتخب له كبار مستشرقي فرنسا من الجامعات الأخرى، وفي هذه الفترة عمل به روبير برونشفيج Robert Brunschvig تـ ١٩٩٠م وشارل بيلا Charles Pellat تـ ١٩٩٢م وكلود كاهن claude Cahen تـ ١٩٩١م ثم روجي أرلنديز Roger Arlandez تـ ٢٠٠٦م وغيرهم،كما انتدب للإشراف فيه على الرسائل مستشرقون آخرون من مراكز البحث غير التابعة للجامعات أمثال مكسيم رودنسون Maxime Rodinson تـ ٢٠٠٤م وجاك بيرك Jacques Berque تـ ١٩٩٥م وآخرون[1]، وقد عرف عن عدد من هؤلاء المستشرقين دعوتهم إلى إخضاع نصوص الوحي خاصة القرآن لمناهج فهم وتأويل النصوص الدينية المسيحية

(١) برونشفيج تخصص في تاريخ الحفصيين بتونس ثم تفرغ للاهتمام بأصول الفقه، وشارل بيلا تخصص في الأدب العباسي، أما كاهن فاشتغل بتاريخ صدر الإسلام، وأرلنديز تخصص في الفلسفة الشرقية والفكر الاسلامي، أما رودنسون فاهتمامه بتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، أما بيرك فشهرته في مجال التقاليد والأعراف بمجتمعات جنوب البحر المتوسط.

فكان تأطيرهم لطلبة الدراسات العليا وإشرافهم على أطروحاتهم مناسبة للترويج لدعواتهم.

وفي الفترة ذاتها وفد إلى السربون أستاذ الفلسفة بول ريكور Paul Ricoeur الذي انتقل من جامعة ستراسبورج عام ١٩٥٦م فسعى لتأسيس تيار في دراسة اللاهوت يقوم على تأويل النصوص المسيحية عن طريق المزج بين " العقلانية الحديثة والهرمنيوطيقا"[١] وكان أحد منظري "اليسار الكاثوليكي" كما تقدم.

ولأن أكثر الطلبة العرب الوافدين إلى "معهد الدراسات العربية والإسلامية" كانوا يحملون إجازات (بكالوريوس) في الآداب أو تاريخ الفكر، فقد أغراهم بريق نظريات تفسير النصوص المسيحية ومنها نظرية ريكور فراح كثير منهم يحاولون تطبيقها في أطروحاتهم ووجدوا في أساتذتهم المستشرقين سندا في ذلك.

ثم أدت أحداث العنف الطلابي في ماي ١٩٦٨م بوزير التعليم العالي الفرنسي ادجار فورE.Faure إلى تقسيم جامعة السربون إلى خمس جامعات مستقلة[٢] الشيء الذي مكن من إحداث "معهد - ثان - للدراسات العربية

---

(١) الهرمنيوطيقا Herméneutique مصطلح يراد به في كتابات النقد الأدبي بـ " علم التأويل"، وقد ارتبط في أوربا بتفسير النصوص الدينية، وأصبح مجاله الآن واسعا باعتباره يهتم بالعلاقة التي تصل بين النصوص بصفة عامة ومن يقوم بتفسيرها والأنظمة التي تقوم عليها عملية التفسير أو التأويل. انظر: جابر عصفور، ملحق "عصر البنيوية ص ٢٧٤.

(٢) هي جامعة باريس الأولى ثم الثالثة (السربون الجديدة) ثم باريس الرابعة ==

والإسلامية" عام ١٩٧٠م ألحق بجامعة باريس الثالثة (السربون الجديدة)، نقل إليه المستشرق برونشفيج الذي تقدم ذكره ثم أُسْنِدَ الإشراف عليه في أواخر السبعينيات من القرن العشرين إلى أحد تلاميذ المستشرقين وهو محمد أركون.

وفي هذين المعهدين الباريسيين انطلق التنظير والترويج الأكاديمي لهذه الدعوى التي ترمي إلى إخضاع فهم القرآن وتفسيره لمناهج العلوم الإنسانية على اعتبار أن نصوص هذا الكتاب لا تختلف عن النصوص الأدبية كما لا تختلف عن النصوص المسيحية التي جربت هذه المناهج في دراستها ونقدها، وقد ساهم في التنظير لذلك لفيف من متأخري المستشرقين إلى جانب عدد من تلامذتهم العرب، وكانت الرسائل التي تقدم للحصول على الدرجات العلمية أهم وسائل الترويج لها.

==

(السربون القديمة)، ثم الخامسة ثم السابعة، وفي هذه المؤسسات تم توسيع التكوينات القديمة للسربون (الأم)، ليصبح التعليم العالي في باريس مقسما إلى اثنتي عشرة جامعة، ويتجه التفكير اليوم لإعادة جمع بعضها مع بعض

المطلب الثالث

التنزيل الأولي لهذه الدعوى

تنبغي الإشارة إلى أن الجامعة الفرنسية والسربون القديمة تحديدا استقبلت العشرات من الطلبة الوافدين من العالم الإسلامي ممن أنهوا دراساتهم العليا هناك وأنجزوا أطروحات متميزة، ومن هؤلاء على سبيل المثال الدكاترة محمد حميد الله الحيدرأبادي وعبدالله دراز ويوسف العش وعبدالصبور شاهين، فهؤلاء ذهبوا إلى فرنسا بعد أن حصلوا على تكوين علمي متخصص في بلدانهم ورغم أنهم صادفوا هناك فترة بدء رواج هذه الدعوات إلا أن بريقها لم يُثِر فضولهم العلمي.

لكن وجد هناك طلبة عرب تخرجوا في بلدانهم بإجازة (بكالوريوس) في الآداب أو الفلسفة أو تاريخ الفكر، فغيروا التخصص في مرحلة الدراسة العليا طالما أن الجامعة هناك تقبل ذلك، فأصبحوا باحثين في الدراسات الإسلامية، ومما شجعهم على ذلك أن أساتذتهم المستشرقين كانوا يشرفون على موضوعات قد لا يكون لهم اطلاع عليها من قبل بسبب عرف درج عليه القوم مؤداه أن التأطير العلمي للرسائل إنما يكون منهجيا فحسب[(١)].

---

(١) انظر ما ذكره د. عبدالرحمن بدوي ت ٢٠٠٢م عن سنوات تعاقده للتدريس في معهد الدراسات العربية والإسلامية بالسربون القديمة ضمن كتابه "سيرة حياتي" ==

وانطلاقا من عقد الستينيات من القرن العشرين سجلت ونوقشت بالسربون (القديمة) في باريس عدد من الرسائل التي وجهت لخدمة التطبيق العملي لهذه الدعوى، ثم استفحل هذا المنحى بعد ١٩٦٨م حين فسح وزير التعليم العالي الفرنسي ادجار فور المجال لإمكانية الحصول على الدكتوراه برسالة واحدة، الشيء الذي جعل الجامعة الفرنسية توسع مجال استقطاب الطلبة الوافدين[(١)].

ونظرا لكثرة الطلبة العرب الذين خدموا في رسائلهم هذا المشروع الغربي الاستشراقي، فستقتصر هذه الدراسة على الإشارة إلى ثلاثة نماذج منهم تم اختيارهم لأسباب أربعة هي:

١- أن رسائلهم طبعت أكثر من مرة ومنها ما ترجم إلى العربية.
٢- أنه لم يسبق لهم اهتمام بالعلم الشرعي قبل مرحلة الدراسات العليا.
٣- أنهم ينتمون إلى جيل الطلبة الرواد في ستينيات القرن العشرين.
٤- أنهم خاضوا في القرآن بهذه المناهج المدخولة رغم أن موضوعات رسائلهم لا تعلق لها بالتفسير.

==

ج٢ ص ١٤-١٦، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.

(١) ابتداء من سنة ١٩٧٠ أصبح القانون في فرنسا يمنح لمدير الأطروحة حق توجيه الطالب للحصول على الدكتوراه إما برسالة واحدة أو برسالتين: أساسية وتكميلية، ثم تغير هذا النظام سنة ١٩٨٤م بآخر أصبح بمقتضاه تهيئ هذه الدرجة برسالة واحدة بحذف مرحلة الماجستير، ليتطور ذلك سنة ٢٠٠٢م إلى نظام LMD، أي الإجازة والماستر والدكتوراه.

أول هؤلاء المصري حسن حنفي الذي تخرج من جامعة القاهرة بإجازة في الفلسفة، وانتقل إلى باريس أواخر الخمسينيات فأعد تحت إشراف روبيرت برونشفيج رسالته عن" مناهج في التأويل: محاولات في أصول الفقه"[1].

والثاني هو الجزائري محمد أركون الذي تخرج بإجازة في الآداب من جامعة الجزائر أوائل الستينيات وغادرها ليستقر بفرنسا إلى أن مات بها عام٢٠١٠م، وقد أعد رسالته الوحيدة للدكتوراه تحت إشراف شارل بيلا عن فلسفة مسكويه وناقشها عام ١٩٦٩م[2].

---

(١) ولد حنفي عام ١٩٢٥م وحين انتقل إلى فرنسا وجهه أستاذه مع طالب آخر هو التونسي أحمد باكير للتدريب على البحث في الفقه وأصوله بإشراف د. محمد حميدالله ت ٢٠٠٢م الذي كان آنذاك يحقق كتاب المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري، وقد تخرج حنفي عام ١٩٦٦م، وارتبط اسمه فيما بعد بتبني التفسير المادي التاريخي للعلوم الإسلامية.

(٢) ولد أركون ١٩٢٨م بمنطقة القبائل شرق الجزائر، عاش طفولته ثم يفاعه في مدارس البعثة التنصيرية الفرنسية بشمال إفريقيا التابعة لطائفة " الرهبان البيض Les Pères Blancs "، وقبيل استقلال الجزائر عن فرنسا انتقل إلى مرسيليا رفقة أستاذه le Tourneau Roger، وقبيل وفاة هذا الأخير عام ١٩٧١م احتضن من قبل الراهب المستشرق لويس غارديه ت١٩٨٦م بتولوز وهو الذي وجهه في مرحلة الدكتوراه حيث كانت رسالته الوحيدة في:

Meskawah:Contribution a l'étude de l'humanisme arabe au 4/10 siècle Philosophe et historien

تحت إشراف شارل بيلا، وقد عمل غارديه على طبعها ١٩٧٠م ضمن منشورات J. Vrin التي كان يشرف عليها.

والثالث التونسي الطاهر لبيب الذي حصل على الإجازة في الفلسفة، وناقش في باريس رسالة دكتوراه السلك الثالث (الماجستير) في تخصص علم الاجتماع تحت إشراف جاك بيرك عن "الغزل العذري عند العرب "عام ١٩٧٢م[1].

مع هؤلاء وطبقتهم ابتدأ التنزيل الأولي لدعوى فهم نصوص القرآن تبعا لما يدعو إليه هذا المشروع التغريبي، يومئذ لم يكن هناك أي تنظير خاص أو تصور منهجي لتطبيقها على القرآن، بل اقتصر عمل هؤلاء على انتحال ما وجدوه بين أيديهم من تصورات وخطط "منهجية" خرجت من رحم معاهد دراسة اللاهوت المسيحي بفرنسا فتلقفوها وأعملوها في رسائلهم الجامعية هناك.

---

(١) طبعت الرسالة مرارا بالفرنسية كما ترجمت إلى العربية، وبحسب صاحبها فقد سعى لتطبيق نظرية "لوسيان غولدمان" "البنيوية التكوينية" على الغزل العربي، فقاده ذلك إلى أقوال منكرة حيث ربط الغزل العذري عند العرب بعقيدة التوحيد التي كانت بحسبه من التصورات الجاهلية، كما تجرأ على تأويل مذموم لسورة الإخلاص ولقصة يوسف في القرآن حتى تسلم له أراجيفه، ولأنه ادعى منكرا من القول فلن أحيل على شيء مما خطته يمينه.

المبحث الثالث

حقيقة هذه الدعوى باعتبار خلفيتها النظرية ومرتكزاتها المنهجية

تطلب الأمر مرور بضع سنوات صدق فيها على أصحاب هذه "الرسائل الجامعية" قول الصادق المصدوق فيما أخرجه البخاري : «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا...» ، فكانت المرحلة الأولى هي انتحال الخطط والرؤى، لتبتدئ بعد ذلك المرحلة الثانية التي تضافرت فيها جهود هؤلاء مع أساتذتهم المستشرقين لأجل وضع تصورات " منهجية " قصدوا بها التأصيل لهذه الدعوى، فكان الاقتباس أو الانتحال ثانية من كتابات المشتغلين باللاهوت خاصة في معاهده بفرنسا، وجاء هذا " التأصيل " كما أخبرت به نبوءة رسول الإسلام ﷺ في الحديث السالف في قوله عليه الصلاة والسلام: «...حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»[1].

---

(١) الإمام البخاري، الجامع الصحيح كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ (لتتبعن سنن من كان قبلكم) حديث رقم ٧٣٢٠.

المطلب الأول

انطلاق هذه الدعوة من خلفية الاستعلاء الغربي

كتب المستشرق الفرنسي كلود جيليو في "دائرة المعارف الشاملة" - نشرة١٩٩٠م - مؤرخا ومفاخرا بما حققه المستشرقون في مجال "تطوير" الدراسات المرتبطة بالتفسير فقال:

"إن تطور الدراسات القرآنية بالغرب منذ منتصف القرن العشرين تحقق بفعل تأثير التقدم الملحوظ في مجال الدراسات الإنجيلية ونظريات النقد الأدبي،أما أثر العلوم الإنسانية وبخاصة الأنثروبولوجيا وتاريخ الأديان فقد بدأ يظهر من خلال احتفال هذه الدراسات بدور الرموز والخيال الديني، ثم اهتمامها بعملية الانتقال من النصوص المتلوة شفاها إلى المكتوبة، وأخيرا اعتنائها بوظيفة الأساطير..؛ ويمكننا أن نميز بين توجهين رئيسين في هذه الدراسات:

الأول: يشتغل على تاريخ النص القرآني من حيث تكوينه وجمعه وتدوينه.

أما التوجه الثاني: فيهتم بإعادة قراءة القرآن انطلاقا من الوسائل التي توفرها مختلف العلوم الإنسانية، كما يعنى أيضا بالدراسة النقدية لأمهات التفاسير القديمة التي تعتبر شاهدا على الطريقة التي ساهم بها النص القرآني في تكوين الخيال الإسلامي في مختلف مراحل التاريخ، أي صورة الإسلام كما ينظر إليه وصورته كما جاء، وصورته في مخيلة

المسلمين"[١].

سيق هذا النص هنا بطوله؛ لأنه يكشف جانبا من "عقيدة" الاستعلاء الغربي، فصاحبه يمن على الدراسات القرآنية المعاصرة "بفضل" المستشرقين عليها من حيث أنهم طوروها اعتمادا على خبرة الغربيين في مجال دراسة اللاهوت، ثم لم يكفه ذلك بل زادهم فضلا على فضل؛ لأن دراستهم النقدية للتفاسير من شأنها أن تكشف أن الإسلام الذي يمارسه أهله والذي يتخيلونه (يتصورونه) في وجدانهم ليس هو الإسلام الذي دعا إليه القرآن.

وهذه "الفرضية" الأخيرة من آثار التصور اللائكي للدين عند الغربيين، حيث يعتبرون طقوس المسيحية وتعاليمها مما استحدثه الرهبان فقط ولا

(١) انظر مبحث "الدراسات المعاصرة" لـ كلود جيليو Claude Gilliot ضمن مادة "قرآن" في النشرة الفرنسية لـ

Encyclopeadia Universalis Corpus6 P547. ed 1990. Paris.

وقد اخترت كلام هذا المستشرق الذي تجاوز السبعين سنة؛ لأنه أصبح اليوم أغزر الغربيين الأحياء كتابة عن التفسير، لذلك أسند إليه تحرير كثير من مواد "دائرة معارف القرآن"، كما جمع بين مسؤوليات كثيرة، حيث أشرف على تحرير دورية أرابيكا Arabica كما تولى إدارة مجلة " النشرة النقدية للحوليات الإسلامية "Bulletin Critique des Annales Islamologiques التي يصدرها المستشرقون بالقاهرة، ثم زاد على ذلك مسؤولية "مجلة معهد الرهبان الدومنيكان" M.E.D.E.O بالقاهرة التي تختص حتى اليوم بالتعريف بمختلف ما يصدر من الكتب الإسلامية في الغرب والعالم العربي، وكثير من موادها تكون متابعة لأخبار معرض القاهرة الدولي للكتاب.

صلة لها بالنصوص الدينية في التوراة والأناجيل، أي أن الدين المسيحي الممارس ليس هو مضمن هذه النصوص ولا تدل عليه؛ غير أنه إذا كانت هذه الفرضية صحيحة عند هؤلاء تبعا لنتائج دراستهم للاهوت، فكيف يعممونها ليصبح أهل القرآن شركاء في هذا "الوعي الشقي" وذلك بوضع أئمة المفسرين الذين صنفوا في العلم في موضع الرهبان والأحبار، ثم بعد ذلك يعتبر هذا من"الفضائل" التي استفادتها الدراسة القرآنية المعاصرة من "تقدم الدراسات الإنجيلية"؟؟؟

إن هذا الاستعلاء لا يمكن فهمه إلا باستحضار تصور غربي لائكي آخر يتعلق بوسائل تحصيل العلم والمعرفة التي تتأسس عند هؤلاء على " تأليه العقل المجرد "وما يؤدي إليه، وهذا ما أُشْرِ به المستشرقون في قلوبهم حين تبنوا دعوى إخضاع القرآن لهذه المناهج التي يحسون بالزهو والعلو حين يتحدثون عن استفادتهم منها في مجال الدراسات المتعلقة بالإسلام عامة وبالقرآن على وجه الخصوص.

ففي محاضرة ألقاها مكسيم رودنسون أمام مستشرقين أعضاء في "الجمعية الهولندية لدراسات الشرق الأوسط والإسلام" بليدن في هولندا بتاريخ ١٦يونيو١٩٧٦م عنوانها "الدراسات العربية والإسلامية في أوربا " قال هذا المستشرق في استعلاء يصل درجة الغرور:" وفي رأيي أن من بين الأشياء الإيجابية التي ثبتت صلاحيتها نهائيا وكونيا في الممارسة الأوربية للعلم هي الدراسة النقدية للأصول،وإذا كانت هذه الدراسة قد مورست من قبل كبار مفكري الحضارات الأخرى إلا أن ممارستها المنهجية إلى أقصى الحدود لم تتحقق إلا في أوربا، وغالبا ما تدان هذه المنهجية النقدية للأصول من قبل غير الأوربيين باعتبارها تنال من

مشاعرهم لكن يجب علينا أن نقول ونكرر بأن هذه المنهجية انطلقت في أوربا وطُبِقَت على الأصول الأوربية، وأن هذا التطبيق على التراث الروماني القديم وعلى نصوص التوراة والأناجيل هو الذي صقل أسلحتها"[(١)].

المطلب الثاني

الدعامات المنهجية لهذه الدعوى

تقدم في كلام المستشرق جيليو أعلاه أن أهم ما احتفل به دعاة إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية فرعان من هذه العلوم هما الأنثروبولوجية وتاريخ الأديان:

أما الأنثروبولوجية فتعنى بدراسة المجتمعات البدائية،وكانت تطبيقاتها الأولى قد اهتمت بالتجمعات البشرية التي تعيش حياة بدائية[(٢)]، أما

---

(١) نشرت المحاضرة ضمن كتاب رودنسون "جاذبية الإسلام"

la fascination de l'Islam p120
.Ed Maspero Paris 1980

(٢) مصطلح الأنثروبولوجيا Anthropology هو تركيب مزجي بين الكلمتين اليونانيتين "أنثروس" وتعني إنسان و"لوجي" وتعني العلم، وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا "علم الإنسان"، وقد كثر الاهتمام به مع اتساع رقعة الاستعمار في القرن التاسع عشر مع الرحالة والمنصرين الغربيين الذين كانوا يعتبرون كل ما سوى المجتمعات الأوربية مجتمعات بدائية أو متوحشة...، وتطور هذا العلم مع دراسات الفرنسي ==

الاستفادة من هذا العلم بأقسام اللاهوت في أوربا فنابع من التصور اللائكي للمجتمعات القديمة التي ظهرت فيها التوراة ثم الأناجيل، فهي تنتمي إلى حقبة التاريخ القديم، وهي تبعا لذلك التصور "مجتمعات بدائية" يجب أن تدرس تبعا لما يقتضيه علم الأنثروبولوجيا وبخاصة ما يرتبط بفهم وتفسير معتقداتها وأنماط تفكيرها "الأسطورية ".

وما دامت معاهد اللاهوت الأوربية نظرت إلى مجتمعات التوراة والأناجيل من هذه الزاوية "النقدية"، فيجب تبعا لذلك إخضاع جميع الكتب الدينية ومنها القرآن لنفس الشيء، واعتبار مجتمع الصحابة ﭫ - بالتبع - "مجتمعا بدائيا" أيضا طالما أنه ينتمي إلى حقبة التاريخ الوسيط في التقسيم الأوربي للحقب التاريخية الكبرى.

وبالنظر إلى عدد من الرسائل الجامعية التي أطَّرَها المستشرقون فإننا نجد أن الموضوع الأمثل الذي وجهوا الطلبة العرب للاشتغال فيه بعلم (الأنثروبولوجيا) هو القصص القرآني ثم مشاهد القيامة في آيات الوعد والوعيد، ومن أمثلة ذلك رسالة ماجستير(دكتوراه السلك الثالث) نوقشت في جامعة باريس الثالثة عام ١٩٧٨م - وهي غير منشورة - موضوعها " القصص القرآني وإنتاج المعنى قصة يوسف أنموذجا"[(١)] (٦٩).

==

كلود ليفي ستروس ت ٢٠٠٩م الذي كان يذهب إلى أن كل مجتمع هو عبارة عن بنية متكاملة مفتاحها الأساسي هو دراسة أنظمتها الثقافية والرمزية التي من بينها الدين الذي يعتبره مجرد إنتاج ثقافي بشري.

(١) L. Gasmi; Narrativité et production du sens dans le texte Coranique;le récit De Josef. Thèse 3 cycle Paris 3; 1978

والى جانب رسائل أمثال هؤلاء الطلبة استغل المستشرقون "الأنثروبولوجية البنيوية " باعتبارها منهجا للتأويل وخاضوا بها في آيات الأحكام العملية من عبادات ومعاملات على طريقة الباطنية قديما الذين أدى بهم التأويل المذموم إلى الطعن في الأحكام جملة وتفصيلا، ومن أبرز الغربيين الذين أوغلوا في ذلك المستشرقة الألمانية أنجيليكا نويفرت - التي تقدمت الإشارة إليها - فقد أنفقت سنين من عمرها للكتابة عن موضوع "التكوين الداخلي لآيات العبادات في القرآن" وانتهت إلى أن عبادة الصلاة - مثلا - مأخوذة عن اليهود؛ لأن القرآن تبعا لهذا التأويل البنيوي ربطها بالكعبة وهي من دين إبراهيم الذي ترجع إليه اليهودية؟؟[1].

أما الفرع الثاني من العلوم الإنسانية في كلام المستشرق جيليو فهو "تاريخ الأديان"، وإذا كان علم التاريخ بصفة عامة من العلوم الإنسانية، فإنه إذا أضيف إلى الأديان أصبح تبعا للفهم الغربي يبحث في تراتبية الأديان و"الاستفادة" المحتملة لبعضها من بعض؛ وبخصوص القرآن يبحث المستشرقون المعاصرون بزعمهم عما أخذه هذا الكتاب من الأديان السابقة، وهم بذلك يعيدون الكرة، فبعد أن كان مستشرقو القرن التاسع عشر وبداية العشرين يبحثون في كتب السير عن أخبار النبي ﷺ

(١) انظر: ع. هرماس، الدراسات القرآنية عند المستشرقين، مجلة البحوث والدراسات القرآنية العدد ٦ ص ١٣٨-١٣٩.

وانظر أيضا دراسة هذه المستشرقة التي قدمتها لمؤتمر بيروت في موضوع: "Du texte de la récitation au canon ضمن دورية Arabica Avril 2000 pp194-229

مع بحيرا وعداس للطعن في ربانية مصدر القرآن، فإن خَلَفَهُم اليوم يتوسلون بـ "تاريخ الأديان" كما يتصوره الأوربيون لبلوغ نفس الغاية.

ولا يقتصر الأمر على القرآن بل حتى التفسير توسل القوم في "نقده" أو بالأحرى الطعن فيه بنفس الوسيلة واستغلوا لذلك ما تناقله الرواة عن مسلمة أهل الكتاب ودخل إلى عدد من كتب التفسير، ويكفي في هذا الجانب الإشارة إلى أن المستشرق السالف جيليو حضر في جامعة باريس الثالثة رسالتيه للماجستير والدكتوراه عن تفسير الطبري وسعى ضمنهما للغمز في "جامع البيان"[(١)]، ثم استخرج فيما بعد من الرسالتين موضوعا في سبع وخمسين صفحة للطعن في ما ذكرته كتب التراجم عن حبر الأمة ابن عباس ﵄ الذي كان من المكثرين في التفسير، واصفا ترجمته في تلك المصادر بأنها " أسطورية Mythique" صنعها المصنفون في علم التاريخ، ولأن الأمر يتعلق بصحابي جليل ﵄ فهذا التطاول الاستشراقي يسعى للطعن في " تاريخ رواة الحديث النبوي" تبعا لذلك[(٢)].

هذا، ومما تنبغي الإشارة إليه هنا أن أول من سعى لجمع " دعامات"

(١) موضوع رسالة الماجستير "المرويات الواردة في تفسير أربعين آية الأولى من سورة البقرة: تشكيلها ووظيفتها" نوقشت تحت إشراف أركون ١٩٨٣م، أما موضوع الدكتوراه فكان " التأويل واللغة وعلم الكلام في الإسلام من خلال تفسير الطبري" نوقشت مع نفس المشرف عام ١٩٨٧م وهي مطبوعة في لغتها الفرنسية.

(٢) C.Gilliot Portrait "Mythique" d Ibn Abas in Arabica T32; fas2 ;1985 pp 127-184.

إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية هو أستاذ جيليو بـ (جامعة باريس الثالثة) محمد أركون وذلك في مقالة مطولة نشرت عام ١٩٧٠م على شكل مقدمة للطبعة الجديدة لترجمة كازيمرسكي للقرآن،ثم أعاد الكاتب نشرها عام ١٩٨٢م ضمن كتاب صدر له بالفرنسية عنوانه " قراءات للقرآن"[(١)] (٧٣)، غير أنه مما ينتقد على الدعامات المنهجية لهذه الدعوى عند أركون خلطه بين مناهج العلوم الإنسانية ومذاهب النقد الأدبي الغربي، ثم انتحاله البين لآراء عدد من دارسي اللاهوت ظل يرددها لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن دون أن يسأم من ذلك.

المطلب الثالث

انعكاس هذه الدعوى خارج الجامعة الغربية

كان لدعوى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية بريق غشا أبصار ثلاث فئات من الناس في العالم الإسلامي:

الأولى: رأت فيها نوعا من "الحداثة" في مجال الدرس القرآني.

والثانية: اعتبرت هذه الدعوى لونا من ألوان التجديد في فهم القرآن تبعا لما يقتضيه العصر.

والثالثة: ركبت هذه المناهج للتلبيس بها عن آراء مذهبية شاذة في الاعتقاد أو السلوك.

---

(١) M. Arkoun; Lectures du Coran pp1-26 ed Maisonneuve et larose ; Paris 1982

فإما الفئة الأولى فتتشكل من طائفة من خريجي الجامعة الفرنسية أغلبهم من تونس، تحلقوا في ثمانينيات القرن العشرين حول مجلة صدرت عام ١٩٨٣م باسم "١٥ ×٢١" - في إشارة إلى القرن الخامس عشر الهجري والقرن الواحد والعشرين الميلادي - كانت تقدم من قبل ناشريها على أنها منبر للحداثة في كل ما يتعلق بفهم الإسلام،ومن هنا جاء - مثلا - احتفالها بمناهج اليسار الكاثوليكي الأوربي في التعامل مع الأناجيل فهما وتأويلا، كما دأبت على تعريب كثير مما كتب عن هذه الدعوى بالفرنسية، وكان عبد المجيد الشرفي تلميذ أركون يترجم لها مقالات أستاذه[١] (٧٤)، وقد تجسدت "الحداثة" بالنسبة لهؤلاء في تلقي وترويج آخر النظريات الغربية في التعامل مع الدين.

أما الفئة الثانية فتجمع عددا من المؤلفين المرتبطين بفرع القاهرة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والتجديد الذي يدعون إليه يقوم على فهم القرآن تبعا لمعطيات "العلوم الاجتماعية"، وكثير من هؤلاء تخصصوا في مجال النقد الأدبي الحديث ومنه انتقلوا للاشتغال بالقرآن ومنهج تجديد "قراءته" بحسبهم[٢].

---

(١) انظر مثلا ملفا عن "آفاق الدراسات القرآنية "ضمن العدد ٥ من المجلة الصادر في مايو ١٩٨٣م وهو مترجم من مقالات لأركون.

(٢) انظر أنموذجا لكتابات هذه الفئة عند وليد منير، النص القرآني من الجملة إلى العالم، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي القاهرة ١٤١٨هـ، وانظر التنظير لهذه القراءة في كتاب د. طه العلواني، معالم في المنهج القرآني، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ دار السلام القاهرة.

أما الفئة الثالثة التي ركبت على هذه الدعوى للتلبيس بها فتتكون من عدد من الرافضة في بيروت وقم، فهؤلاء ركبوا بآخرة على هذه الدعوة في مرحلة خريفها، وأكثر منشوراتهم بالعربية تصدر في بيروت عن "مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي"، ولا أريد أن أشغل القارئ بذكر شيء من عناوين منشوراتهم ولا أسماء مؤلفيها، لأن الغاية منها - فيما وقفت عليه - الدعاية الملتوية لمذهب الرفض بين قراء العربية، ويضاف إلى هذه النحلة الأخيرة فرع مشابه لها بلندن هو "مركز الدراسات الإسماعيلية" المتقدم ذكره.

وأهم ما يجب التنبيه إليه عند الكلام عن أثر دعوى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية خارج الجامعة الغربية ما يلي:

١- إننا في الوقت الذي نجد فيه المستشرقين وتلامذتهم هناك لا يتوانون عن ربط الدعوى بالدراسات التي ظهرت في معاهد اللاهوت بالغرب، فإننا نفاجأ بكون الفئات الثلاث السابقة تجهد لإخفاء ذلك الارتباط، بل هناك من سعى لقطع صلة هذه الدعوى بمنبتها حتى لا ينعت بالتغريب.

٢- أن دعوى إخضاع القرآن لهذه المناهج لم يحتفل بها في العالم العربي - خاصة - إلا بعد إحالتها على "متحف" تاريخ الفكر بأوربا وإغلاق قلاعها في الجامعة كما سيأتي بيانه في المبحث اللاحق.

٣- أن نقل هذه الدعوى وإن جاء في سياق "ظاهرة التثاقف" إلا أن الواقع يشهد أن كثيرا من الذين يتبنونها في العالم الإسلامي - والعربي على الخصوص - لا تتعدى معرفتهم بها ما يصطلح عليه

بـ "ثقافة السماع" الشيء الذي جعلهم يدعون إلى مناهج تكلفوها، ومن ثم صدق فيهم قول الإمام الشافعي عن سلفهم في زمنه: "... ومن تكلف ما جهل وما لم تثبته معرفته: كانت موافقته للصواب - إن وافقه من حيث لا يعرفه - غير محمودة والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور، إذا نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه"[1].

(١) الإمام الشافعي، الرسالة ص ٥٣،مصورة بدار الفكر، تحقيق أحمد شاكر.

المبحث الرابع

تقويم هذه الدعوى وآثارها وبيان آفاقها

أول ما يوقف الباحث المتخصص حين يدرس هذا الموضوع بغية تقويمه هو طبيعة وحدود الاهتمام العلمي "لمعاهد الدراسات العربية والإسلامية" في جامعات أوربا الغربية بشكل عام والتي احتضنت هذه الدعوى بشكل أخص، ذلك أن اتساع ذلك الاهتمام جعل المستشرقين يغرقون في التنظير لمشاريع لا يستطيعون انجازها مهما امتد بهم العمر بغض النظر عن جدواها وفائدتها في مجال البحث العلمي؛ وفي دراسة قدمها كلود كاهن وشارل بيلا إلى آخر مؤتمر دولي للمستشرقين عام ١٩٧٣م عنوانها "الدراسات العربية والإسلامية" استهلا كلامهما بالتذكير بصعوبة وضع خط ثابت للتمييز بين حدود "الدراسات الأدبية" و"الدراسات التاريخية والاجتماعية" في المجال الذي يشتغل فيه المستشرق[١]، وهذا التداخل أو الخلط بين المجالات المعرفية المختلفة جعل هؤلاء يدرجون القرآن - أولا- ضمن دراساتهم التي تعنى بالنصوص الأدبية ومن ثم أخضعوه للمناهج الغربية المختلفة في النقد الأدبي، ولم يكفهم ذلك حتى أضافوا - ثانيا - مناهج الدراسة التاريخية والاجتماعية تقليدا

---

(١) Cahen et C.Pellat; Les Etudes Arabes et Islamiques;in Journal Asiatique n :٢٦٢ C. Fas 1-4 ; 1973 p 93.

لما يعج به المحيط الجامعي الذي يعملون فيه، وبخاصة معاهد دراسة اللاهوت التي سبقت إلى الشيء نفسه.

واعتبارا لذلك جاءت دعوى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية على شكل "مشروع" كبير لم يقدر أصحابه حقيقة حجمه - على افتراض صحته - لذلك عجز أكثر دعاته تحمسا له عن انجاز شيء منه، ومن هنا محاولة استقطاب طلبة الدراسات العليا من العرب للعمل فيه لكن ذلك لم يفده[1].

ولأن تقويم هذه الدعوى والوقوف على آفاقها يصعب في صفحات معدودة وبخاصة حين ننظر إلى الكتابات التي راكم فيها المستشرقون وتلامذتهم تنظيراتهم طيلة نصف قرن أو يزيد، فسيتم الاقتصار من ذلك على أمور ثلاثة رئيسة هي:

١- تقويم هذه الدعوة - إجمالا - من جهة المنهج.

٢- أثرها في أوساط طائفة من هواة التأليف عن القرآن.

٣- بيان آفاقها المستقبلية من منظور ما انتهت إليه حاليا في منبتها الأصلي.

(١) انظر دعوة المستشرقين إلى ذلك في المرجع السابق
Les Etudes Arabes et Islamiques;in Journal Asiatique; n 262 …p107.

المطلب الأول

تقويم الدعوى من جهة المنهج

المنهج في مجال البحث والدراسة هو السبيل الذي يتم اعتماده من أجل الوصول إلى المعرفة أيا كانت، ويجب أن يكون مستوفيا للقواعد والضوابط العلمية المطلوبة في كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية سواء أكانت نظرية أو تطبيقية وسواء تعلقت بالدين أو بغيره، وأساس هذه القواعد ما يحقق استقلالية الباحث والدارس ويمنعه من إضفاء ميوله الذاتية أو أهوائه أو آرائه المذهبية على المادة التي يشتغل عليها بما يتنافي مع "أخلاقيات العلم" حسب المصطلح المعاصر(١).

والعارف بتاريخ تفسير القرآن يدرك أهمية المنهج، كما يعلم أن فساده أو قصوره هو السبب الأول وراء مختلف الانحرافات التي ارتبطت بالتفسير المذموم مع طوائف المبتدعة قديما، فقد استعاروا مناهج غريبة عن القرآن وجعلوها مرآة نظروا فيه من خلالها فلم يبصروا الحق، فضلوا وأضلوا.

وتفسير القرآن أو فهمه مثله مثل سائر المعارف له قواعده وأصوله التي تضبط عمل المقدم عليه، وهي أمور منهجية تساعد الناظر فيه على إدراك الحق الذي يبتغيه وتصون جهده من الهدر أو العبث، كما تحمي

(١) ديفيد رنزنيك، أخلاقيات العلم، عالم المعرفة الكويت العدد٣١٦ عام ٢٠٠٥م.

كتاب الله تعالى من الخائضين فيه وكذا من الذين حرمهم سبحانه فقه معانيه واستنباط هديه كما وصفهم ﷻ في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الإسراء: ٤٦].

ودعوى إخضاع تفسير القرآن أو فهمه لمناهج العلوم الإنسانية قدمت من قبل المستشرقين وتلامذتهم على أنها "قراءة Lecture" للقرآن، ومصطلح القراءة هذا يعني - تبعا للمفهوم البنيوي الذي ظهر في إطاره - "إعادة إنتاج المعنى"و "تعدد المعاني بتعدد القراءات"؛ وقد سعى منظرو هذه الدعوى إلى التأصيل لها في مؤلفات أشهرها:

- كتاب "إعادة قراءة القرآن Relectures du Coran" لـ جاك بيرك تـ ١٩٩٥م.
- كتاب "القرآن: دليل قراءة Le Coran guide de lecture" لـ روجي أرلنديز تـ ٢٠٠٦م.
- دراسة بعنوان "كيف نقرأ القرآنComment lire le Coran" لـ محمد أركون تـ ٢٠١٠م.

وبصرف النظر عن عدم أهلية هؤلاء المنظِّرين العلمية للكلام في فهم القرآن وتفسيره بحكم جهلهم بالتخصص، وبغض النظر أيضا عن جدوى استعارة هذه المناهج الغريبة من حقل دراسة اللاهوت..، يبقى مصطلح القراءة بحد ذاته – رغم تساهل كثير من المعاصرين في استعماله – يدعو إلى التوقف عنده.

فقد ظهر المصطلح في مجال الدراسات الأدبية، وارتبط بـ "نظرية النص Théorie du texte" في حقبة انتشار النزعة البنيوية، ولأن تفاصيل

هذه النظرية لا تفيد غير المتخصص في مذاهب النقد الأدبي المعاصر، فلتقريب المراد منها نقف هنا على لبابها فقط من خلال كلام أشهر منظِّريها وهو الناقد الفرنسي: رولان بارتRolan Bartes تـ ١٩٨٠م حيث قال:"...جاءت (نظرية النص) إعلانا بميلاد (القارئ) الذي ينتج الدراسة الأدبية أي القراءة بمعناها الواسع اعتمادا على مناهج مختلفة، وتتعدد هذه القراءة بتعدد أصحابها ولو تناقضت النتائج التي يتوصل إليها كل واحد؛ لأن كل واحد منهم يبدع قراءة جديدة"(١).

فالذي نخلص إليه من النص السابق أن مصطلح القراءة هذا لا يميز فيه بين النص الأدبي الذي ينتجه البشر وبين الكلام الإلهي المنقول إلى الناس وحيا فكل ذلك سواء، ثم إن القراءة هي إنتاج للمعاني وليست استنباطا لها، وأخيرا فان تناقض هذه المعاني التي تنتجها القراءة واختلافها وتضاربها مطلوب بحد ذاته...(٢).

وتبعا لذلك فهذه "القراءة" يراد منها باختصار أن تفتح الباب للاختلاف

---

(١) R. Barthes; "Texte (théorie de)" ; in Encyclopeadia Universalis Tome 22; pp370-374

(٢) انظر دراسة نقدية لهذه القراءة عند: د. عبدالعزيز حمودة تـ ٢٠٠٦م في ثلاثيته:
- المرايا المحدبة، عالم المعرفة الكويت العدد ٢٣٢ عام١٩٩٨م.
- المرايا المقعرة، عالم المعرفة الكويت العدد٢٧٢ عام٢٠٠١م.
- الخروج من التيه، عالم المعرفة العدد٢٩٨ عام ٢٠٠٣م، وقد عرض ضمن هذه الكتب الثلاثة لعوار تطبيقات هذه القراءة الحداثية في مجال النصوص الدينية الإسلامية.

والتناقض في تفسير القرآن وفهمه، فإذا تمهد ذلك كان وسيلة لنقض هدي القرآن وأحكامه في العقيدة والعبادات وأمور الحلال والحرام كلها، وهذا ما يهفو إليه المستشرقون السابقون وتلامذتهم ممن ينسبون أنفسهم إلى "الحداثة "، ولأجله يتكلفون الانتصار لما يصطلحون عليه بـ " تاريخية النص القرآني"[١].

المطلب الثاني

أثر هذه الدعوى في أوساط هواة التأليف عن القرآن

الدعوة إلى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية يراد بها وفق "خطة" القراءة السابقة ربط آيات القرآن بزمنها وبيئتها،وقطع صلتها بما عدا ذلك من الأزمان والبيئات اللاحقة، وهذا ما يصطلح عليه بـ "تاريخية القرآن" أي ارتباطه بعصر محدد مضى[٢].

وقد قادت هذه القراءة دارسي اللاهوت - من قبل - إلى القول بآراء غريبة فيما يتصل بنزعة التدين عند الإنسان، فاعتبروا العقيدة تقوم على

(١) للتوسع يرجع الى: د. طه عبدالرحمن، روح الحداثة ص ١٨٤-١٨٨، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء.

(٢) حرص أركون على جمع طائفة من مقالاته التي ترجمها إلى العربية تلميذه هاشم صالح عن أصول الفقه وعلم الكلام..، فنشرها عام ١٩٨٦م بعنوان " تاريخية الفكر العربي الإسلامي".

الإيمان الشخصي الذي يكيفه المرء على حسب هواه، ثم رأوا في الشعائر قيودا على سلوكيات الأفراد، وبنوا على ذلك مجموعة من الفرضيات التي أُلبِسَت ثوب العلم هي:

١- كون العقيدة مرتبطة بمستوى المعرفة في كل عصر، ففي زمن ظهور المسيحية كانت المعرفة أسطورية، وفي زمن "فلسفة الأنوار" بأوربا وما بعدها يجب أن تصبح العقيدة هي "إعلاء" العقل البشري المجرد.

٢- أن التكاليف أو الأحكام الدينية مجرد "تعاليم" أو توجيهات لا تكتسي صفة الإلزام.

٣- أن نزعة التدين عند الإنسان لا يجب أن تتجاوز "الأخلاقيات الوجدانية" الخاصة بكل فرد، ومن ثم يجب أن لا ترتبط بأي جزاء أو عقوبة في الحياة أو بعد الممات؛ لأن التدين مسألة شخصية للمرء أن يمارسها كيفما يهوى.

ولأن "قراءة القرآن" تتأسس على الاستفادة من التطور الحاصل في مجال دراسة اللاهوت، فقد انتقلت هذه الفرضيات إلى محافل المستشرقين وتلامذتهم، وبسبب فراغهم المعرفي الذي يصل درجة الجهل، أصبحوا يكتبون عن "دور الأسطورة في القرآن"، وحلت كلمة "التعاليم الإسلامية" مكان الأحكام الشرعية وهلم جرا...

ثم إن التأليف عن كتاب الله في عصرنا تطاول عليه الناس، وأدى ذلك إلى "فتنة" حقيقية في الكثير من الكتابات التي امتطت صهوة "قراءة القرآن " فأورثها ذلك تخبطا في التعامل مع مصطلحات غربية استعيرت من بيئتها الفكرية، ومن هذه المصطلحات "تاريخية النص الديني" الذي

يعني تبعا للمفهوم الغربي قطع علاقة هذا النص بأي مصدر غيبي، وحينما يستعمل في مجال الدراسات القرآنية يعني نفي خاصية الربانية عن القرآن، مما يحيل مباشرة إلى القول ببشرية مصدر هذا الكتاب، أو على الأقل النظر إلى آياته على أنها "مجازات" تخاطب العقل الخفي في الإنسان ومساواة القرآن بالتوراة والأناجيل.

واتسع مجال غزو هذه المصطلحات - التي أحدثها اللائكيون بالغرب لدراسة كتبهم الدينية - بين أولئك المؤلفين الذين تلقفوها طلبا لبريقها، ومن أشهرها على سبيل المثال:

مصطلح الإشكالية problématique، ومصطلح الرموز symboles، ومصطلح المقاربة Approche... وأمثالها مما أدخلها قبل سنوات دعاة إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية، واليوم يرددها عدد من هواة التأليف عن القرآن بالعالم الإسلامي ممن لم يعرف عنهم التخصص في الدراسات القرآنية ولا الاطلاع على المعاجم الغربية التي ضبطت المفاهيم المرادة، بل لا يكلفون أنفسهم حتى السؤال عن السياق الفكري الغربي الذي أنتجها.

المطلب الثالث

آفاق هذه الدعوى من منظور ما انتهت إليه

مضى على هذه الدعوى أكثر من أربعة عقود وكان مما انتهت إليه:

١- أنها فتحت الباب لتجريب شتى المناهج على القرآن، ابتدأت التجربة بالعلوم الإنسانية واختتمت بالنظريات النقدية والفلسفية المطبقة في مجال الدراسة الأدبية بدون التفات إلى أصولها ولا إلى أفول الاهتمام بها في مواطنها، ووصل الأمر اليوم أننا نجد مختلف المتسورين على الدراسات القرآنية يتخذون هذه "القراءة" سلما للتقول على الله بغير علم.

٢- أنها زعزعت لدى كثير من الكتاب والمؤلفين الاعتقاد بجدوى الأهلية العلمية والتخصص الأكاديمي، ذلك أن دعاة هذه القراءة من المستشرقين وتلامذتهم جعلوا من أنفسهم "أئمة" للمعارف المتنوعة، فهم متخصصون في القرآن وعلوم الإسلام قاطبة، بالإضافة إلى تخصصهم في العلوم الإنسانية ودرايتهم بالمناهج المعاصرة في النقد الأدبي، ومن "غرائب" البحث في هذا الموضوع أن نجد المستشرق جاك بيرك تـ ١٩٩٥م يترجم له في موسوعات الأعلام بالغرب على أنه: "عالم إسلاميات وسوسيولوجي وأثنوغرافي ولساني ومؤرخ"(١)، في حين أن مؤسس الأنثروبولوجيا البنيوية كلود ليفي

(١) انظر ترجمة جاك بيرك في: ; Dictionnaire des orientalistes de langue française pp102-103 ; ed Karthala; Paris 2008.

ستروس لا ينسب سوى إلى العلم الذي أسسه.

٣- أنه بالرغم من كثرة الكتابات التأصيلية لهذه الدعوى إلا أنها لم تنتقل إلى مجال التطبيق، فبقيت "مشاريع" معلقة تنتظر من يخدمها؛ لأن " سدنتها" بعد أن تحمسوا لها عجزوا عن تجربتها.

فمحمد أركون تـ ٢٠١٠م عاش واحدا وثلاثين سنة بعد نشر أول مقالة له في التنظير لها، كتب في مستهل هذه السنين مقالتين عن سورتي الفاتحة والكهف نشرهما سنة ١٩٨٢م ولما واجهته استحالة تطبيق دعوته من خلالهما انكفأ إلى الوراء مكتفيا بالبحث عن تلاميذ يترجمون مقالاته إلى العربية عله يصادف بين قرائها من يخدم دعوته.

أما جاك بيرك فقد وصل متأخرا إلى هذا المحفل فوجد سابقيه من المستشرقين قد أنهوا اقتباس التنظير لهذه "القراءة" من معاهد اللاهوت، فانتحل لنفسه التنظير لما سماه " إعادة القراءة Relecture " فنشر بالفرنسية عام ١٩٩٠م كتابا تحت عنوان: " القرآن: محاولة ترجمة من العربية مع تقديم ودراسة عن التفسير"، والكتاب يتكون من شقين:

الأول - ترجمة لمعاني القرآن، وهي حافلة بالأخطاء[١].

الشق الثاني - مقدمة في التنظير لهذه القراءة، وقد استل هذا الشق من الكتاب عام ١٩٩٣م ونشره في كتيب مستقل بعنوان "إعادة قراءة القرآن"[٢].

---

(١) الدراسات القرآنية عند المستشرقين، مرجع سابق ص

(٢) انظر: J. Berque; Relire le Coran; ed Albin Michel; Paris 1993

لكن "إعادة قراءة القرآن" هذه لم يستطع جاك بيرك تطبيقها لا في ترجمته التي استنكرها الأزهر في حينها ولا في غيرها، رغم الدعاية التي أحاط نفسه بها بعد طبع الكتيب الذي هو في الأصل محاضرات ألقاها في "معهد العالم العربي" في باريس.

وأخيرا نصل إلى آفاق هذه الدعوى، فالذي يظهر بعد الدراسة المتأنية أنها لا تعدو كونها "نزوة" عابرة مثل نزوات الباطنية قديما الذين وصف أبو حامد الغزالي صنيعهم بالقرآن والسنة فقال:"...إنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها، واستفادوا بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ إبطال معاني الشرع، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة، وأنهم لو صرحوا بالنفي المحض والتكذيب المجرد لم يحظوا بموالاة الموالين"[1].

ويدل على أنها نزوة عابرة مصير قلاعها في منبتها الأول، والمقصود " معهد الدراسات العربية والإسلامية" في جامعتي باريس الرابعة ثم الثالثة:

فبالنسبة للسربون القديمة (باريس الرابعة) - التي كانت مهد الدعوى إلى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية- فقد اختفى منها هذا المعهد بعد هلاك أو هرم أعمدته من المستشرقين، ولا تتوفر هذه الجامعة اليوم سوى على "وحدة للدراسات العربية والعبرية" يشرف عليها عبدالله الشيخ

---

(١) الغزالي، فضائح الباطنية ص ٥٩، المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٢هـ.

موسى. وفي مرحلة الدكتوراه أدمج البحث في الآداب العربية وتاريخ الإسلام ضمن تكوين خاص بـ" العالم الوسيط والقديم".

أما بالنسبة للسربون الجديدة (باريس الثالثة) - التي شبت فيها الدعوى - فقد ألغي "معهد الدراسات العربية والإسلامية" بها وعوض الآن بـ "مركز الدراسات العربية" الذي يهتم بالسوسيولوجيا ويشرف عليه اليوم برهان غليون.

كما يدل على أنها نزوة عابرة - أيضا- حالها في العالم الإسلامي بعد أن أصبحت مطية لكثير من المتسورين على القرآن من هواة التأليف الذين يخشون أن يحاجهم أهل القرآن في فهمهم المدخول، أو يحاكموا جرأتهم على الله بعرض كلامهم على أصول علم التفسير، فارتأوا أن أقصر طريق للتخلص من ذلك هو نسبة "فهمهم" إلى "قراءة القرآن" وليس إلى تفسيره.

خاتمة الدراسة واستنتاجاتها

كان فهم القرآن أو تفسيره اعتمادا على مناهج العلوم الإنسانية دعوى نادى بها لفيف من متأخري المستشرقين وقد برزت في محافلهم باعتبارها شيئا جديدا في تاريخ الدراسات القرآنية الغرض منه تطويرها، وارتبط ذلك بأمرين:

- الأول - فصل هذه الدراسات عن أصولها وقواعدها التي تحكم النظر في القرآن فهما وتفسيرا واستنباطا.
- الثاني - استعارة تطبيقات تيار لاهوتي لائكي غربي لهذه المناهج والاستفادة من تجربته في تطوير الدرس القرآني.

وإذا كانت هذه الدراسة قد انتهت إلى أن هذه الدعوى التي قدر لها أن تظل " معلقة " التطبيق هي في حقيقتها مجرد نزوة عابرة في تاريخ تعامل الناس مؤمنين أو كفارا مع القرآن، فقد خلصت في سياق بحثها للموضوع إلى الاستنتاجات الرئيسة التالية:

١- أن هذه الدعوى لها جذور تتصل بعقيدة "الاستعلاء الغربي" على بقية الأمم والشعوب، حيث لا يقتصر الأمر على فرض التصورات الغربية في شأن العلوم والمعارف المشتركة بين الناس، بل حتى خصوصيات الأمم يجب أن تقتحمها هذه التصورات لتحدد لأصحابها غصبا عنهم طريق الفهم، ومن هنا جاء تطاول هؤلاء على الدراسات القرآنية بمبرر " التطوير".

٢- أن غاية هذه الدعوى نشر الاعتقاد بتاريخية القرآن، وأيسر سبيل

لتحقيقها الاستفادة من الإمكانيات التي توفرها نظرية " القراءة" تبعا لمفهومها في تحليلات ما بعد البنيوية، حين أصبحت النصوص منفتحة على كل المعاني التي لا تكف عن التوالد، وأصبح قارئ النص ينتج دلالته بمعزل عن دلالته المعجمية وعن قواعد تفسير النصوص.

٣- أن الترويج لهذه الدعوى تنظيرا وتطبيقا انطلق من المؤسسات الجامعية التي تحولت عدد من معاهدها إلى "قلاع" تم فيها توجيه رسائل الدراسات العليا لخدمة هذا الترويج، وذلك قبل إغلاق هذه المعاهد لاحقا بعد استنفاد أغراضها.

٤- أن انتقال هذه الدعوى خارج موطن ظهورها كان من طريقين:

- الأول: بواسطة أفراد من البعثات التعليمية إلى الجامعات الغربية، فهؤلاء تولوا فيما بعد مهام التدريس الجامعي في أوطانهم، وحرصوا على خدمة هذه الدعوى نشرا وترجمة وتأليفا.
- الطريق الثاني: كان نتيجة "عملية التثاقف"، إذ كان لهذه الدعوى بريق يغشى الأبصار المولعة بكل ما يدلي إلى "الحداثة" بسبب، لذلك ركبها الكثيرون ممن تكلفوها دون أن يعلموا منشأها ولا خلفياتها؛ والله تعالى أعلم.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies


جامعة الملك سعود
King Saud University


كرسي القرآن الكريم وعلومه
Chair of Qur'anic Sciences